@ketab_n
Follow Me
16.5.2017

سيزار آيرا

المؤتمر الأدبي

رواية

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

سيزار آيرا

المؤتمر الأدبي

رواية

ترجمة: عبد الكريم بدرخان

مسكيليانى للنشر

Twitter: @ketab_n

ألف ـ راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

المؤتمر الأدبي

Twitter: @ketab_n

المؤلّف: سيزار آيرا
عنوان الكتاب: المؤتمر الأدبيّ
ترجمة: عبد الكريم بدر خان
تدقيق: شوقي العنيزي
خط الغلاف: الفنّان سمير قويعة
تصميم الغلاف: الشاعر محمّد النبهان
الناشر: مسكيليانى للنشر والتوزيع
15 نهج أنقلترا تونس- تونس العاصمة
الهاتف: 21512226(216+) أو 537090811(966+)
الإيميل: masciliana_editions@yahoo.com
ر.د.م.ك: 978-9938-833-80-5
Copyright © 2006 by César Aira

الطبعة الأولى: 2017

جميع الحقوق محفوظة للناشر©

Twitter: @ketab_n

الفصل الأول
خطّ ماكوتو

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

في زيارتي الأخيرة إلى فنزويلا، سنحتْ لي الفرصة للتشرُّف بمعرفة ما يُسمّى «هيلو دي ماكوتو»، أي «خطّ ماكوتو»، وهو إحدى عجائب الدنيا. كنزٌ قديم تركَهُ أحدُ القراصنة المجهولين، يجذبُ عيون السيّاح، ولغزٌ لم يُحلَّ حتى اليوم. إنه معلَمٌ تذكاريّ عجيب أبدعه الإنسان، وبقي سرُّهُ غامضًا على مرّ القرون. ومع مرور الزمن صار جزءًا لا يتجزأ من الطبيعة، هذه الطبيعة الواقعة بين أكثر خطوط العرْض أهميّةً، والمتّسمة بالثراء الوفير، وبما يمنحُه هذا الثراء للإنسان من قدرات على الإبداع. «ماكوتو» هي إحدى البلدات الواقعة على طول الساحل، والمنتشرة تحت أقدام العاصمة «كركاس»، وتحديدًا بجوار مدينة «مايكيتيا»، حيث يقع المطار الذي وصلتُ من خلاله. لقد تركوني لأرتاح قليلًا في «لاس كوينس ليتراس» الفندق الجديد المبنيّ قُبالة الشاطئ، وبجواره يقعُ المطعمُ والبار اللذان يحملان الاسم ذاته. كانت غرفتي مُطلَّةً على البحر، البحر الشاسع المدى، اللطيف الودود في آن، البحر الكاريبي الأزرق البرّاق. يقع «خطّ ماكوتو» على بعد مائة ياردة من الفندق، وكنتُ أسترقُ النظر إليه من نافذة الغرفة، ثم قررتُ أن أنزل وألقي نظرةً عن قرب.

خلال سنوات طفولتي، ومثل كل الأطفال في الأمريكيّتين، أطلقتُ العنانَ لخيالي لكي يمعن التفكير في لغز «خطّ ماكوتو»، فهو دليلٌ حيّ على أنّ عالم القراصنة الخرافيّ، كان حقيقيًا، وثمّة برهانٌ محسوسٌ عليه. الموسُوعات التي كنا نقرؤها في تلك الأيام (كانت موسوعتي بعنوان «كنوز الطفولة»، وهي لا تستحقُّ عنوانها إلاّ في هذه

Twitter: @ketab_n

الصفحات) تحوي رسومًا بيانيّة وصورًا فوتوغرافيّة له، وكنتُ أنقلها إلى دفتري وأشرع في حلّ عُقدة الخطّ، ثم أكشفُ اللثام عن اللغز. وفي سنوات لاحقة، شاهدتُ برامجَ وثائقيّةً عن الخطّ على شاشة التلفاز. ثم اقتنيتُ كُتبًا عنه، ولطالما صادفتُه أثناء دراستي للأدب الكاريبيّ والأدب الفنزويلي، حيث يتكرّر ذكْرُه بوصفه فكرةً محوريّةً. وكذلك تابعتُ مثل كلّ الناس (أي بعيدًا عن اهتمامي الخاصّ به)، المقالات الصحافية التي تتحدّث عن النظريات الحديثة والمحاولات الجديدة الرامية إلى حلّ اللغز. المنطق يقول: إنّ ظهور نظريات جديدة بشكل مستمرّ، يعني أن النظريات القديمة قد فشلَتْ، واحدةً تلو أخرى.

وفقًا للأسطورة التي يردّدها العجائز هنا، فقد صُمِّمَ الخطُّ لحماية الكنز من الغرق في قاع البحر، والكنزُ عبارةٌ عن غنيمة كبيرة باهظة القيمة، تركَها أحدُ القراصنة. هذا القرصان (لم أجدْ اسمه في أيٍّ من المصادر التاريخية التي استخدمتُها أثناء بحثي في الموضوع) كان فنانًا عالمًا إلى درجة العبقرية، من نمط ليوناردو دافنشي، وإلاّ لما تمكّن من ابتكار هذا الجهاز العجيب الذي يُخفي الغنيمة في البحر، ويحميها من الغرق، ويُتيح استعادتها أيضًا.

كان الجهاز بسيطًا بدهاء، فقد كان اسمه «خطّ» أي مجرّد خيط. وهو في الواقع حبْلٌ مصنوع من الألياف الطبيعية، يمتدُّ مسافة ثلاث ياردات فوق سطح ماء البركة المجاورة لشاطئ «ماكوتو». أحدُ طرفَي الحبل يختفي في ماء البركة، ثم يظهر على بعد مائة ياردة من الشاطئ، فوق صخرة ناتئة في قلب البحر، ملتفًّا على عمود حجريّ طبيعيّ المنشأ. ومن ذلك العمود يعود إلى الشاطئ، حيث يلتفُّ على مسلّة حجرية عدّة لفات، مشكّلًا عقدةً فوق عقدة، كلُّ واحدة منها مربوطةٌ ربطة الفراشة. ثم يصعد إلى قمّتي جبلَين من سلسلة الجبال

Twitter: @ketab_n

الساحلية، ومنهما يعود إلى المسلّة راسمًا مُثلثًا. هذا الجهاز الغريب الشكل، حافظَ على سلامته وقوّته على مرّ القرون، ولم يقم أحدٌ بترميمه أو صيانته يومًا. بل على العكس، فقد ازدادتْ متانتُه مع مضيّ الزمن، على الرغم من محاولات صائدي الكنوز المستمرّة، واللصوص والفضوليين، وفيالق السيّاح.

كنتُ مجرَّد مغامر جديد، والمغامر الأخير كما سنرى. وجدتُ نفسي واقفاً أمامه فجأةً ففمرتْني حالةٌ من النشوة والرهبة معًا، وفي هذا الموقف لا ينفعُكَ ما تعرفه عن هذا الخطّ الشهير، لأنّ المثول أمامه قصّة مختلفة كليًا. إذ تختبرُ الإحساس العميق بوجوده، بحقيقته، وتنزعُ عن عينيك نقاب الأحلام (وهذا جوهر الحقيقة)، لتعيش اللحظة في ذروتها، لتعيش على «إيفريست» اللحظة. لا حاجةَ إلى الإقرار بأني لستُ أهلًا لعملٍ بطوليّ كهذا، فأنا حتمًا أقلُّ من الآخرين. وفي كل الأحوال، هذا هو الخطّ... فاتن بقوّته ومناعته، مشدود بعزم، ضعيف في بنيته، يخطف ضوء الماضي من أعيُن البحّارين والمغامرين. وهنا اكتشفتُ سببًا آخر لشهرته الواسعة، وهو أنه يتكلّم! ففي الليالي العاصفة تجعله الريحُ يغنّي، والذين يسمعون غناءه أثناء الأعاصير، يُصيبهم مسٌّ إلى آخر يوم في حياتهم، إذ لا تخرج أصواتُ العويل الكونيّ من آذانهم. ها هو نسيمُ البحر بكل أصابعه، يعزف على قيثارته لحنًا واحدًا: الكنز المفقود. ومع أننا في الظهيرة الآن، والهواء ساكن تمامًا (إذا سقطتْ ريشة من طائر في السماء، فإنها ستصل إلى الأرض بخط عمودي)، إلا أنّ نشيج البحر كان مدوّيًا، ناشرًا الأنغام المهيبة في قلب السكون الوديع.

كان لوقوفي في حضرة هذه التحفة الخالدة، نتائج عظيمة، نتائج تاريخية موضوعيّة، ليس بالنسبة إليّ فقط، بل بالنسبة إلى العالم

Twitter: @ketab_n

أجمع. لأنّ حضوري الحذر والمتواضع، حضوري العابر، مثلي مثل غيري من السياح... في تلك الظهيرة... مكّنني من حل اللغز، وتحريك الجهاز النائم منذ قرون، واستخراج الكنز من أعماق البحر.

لا يعود السبب إلى كوني عبقريًا أو موهوبًا بشكل استثنائي، أو بأيّ شكل من الأشكال، بل على العكس تمامًا. ما حدث فعلًا (أحاول الشرح) هو أنّ كلّ عقلٍ يتكوّن من تجاربه وذكرياته ومعارفه، وما يجعل عقلًا ما فريدًا من نوعه، هو المجموع الكلّي لما سبق، والنوعية الفريدة لمجموع البيانات التي شكّلتْ هذا العقل. كل إنسان يملك عقلًا ذا قدرات، وسواء كانت هذه القدرات عظيمة أو متواضعة، فإنها تظلّ فريدةً على الدوام، لأن هذه القدرات تعود إلى هذا العقل الذي يعود بدوره إلى الشخص وحده. وهذا ما يجعل الجميع قادرين على القيام بإنجاز مّا، سواء كان مُهمًا أو سخيفًا، لكنه الإنجاز الوحيد الذي يستطيعون القيام به. وفي هذه المسألة، فشلَ جميعُ السابقين في حل اللغز، لأنهم اعتمدوا على التراكم الكمّي للمعلومات والمهارات، في حين أنّ المطلوب هو نوعية خاصة جدًا من المعلومات والمهارات. صحيحٌ أنّ ذكائي محدود بشكل عام، وهذا ما برهنتُه لنفسي بشكل قاطع، يكفي أنّه لا يُسعفني إلاّ بعُسر شديد على البقاء عائمًا بين أمواج الحياة الهائجة. ومع ذلك، فإن نوعيّةَ ذكائي فريدةٌ، ليس لأنني قرّرتُ أنها فريدة، بل لأنها أثبتتْ ذلك عمَليًا.

هكذا هي الحال عند جميع الناس، في كافة العصور ومختلف الأماكن. ويكفي أن نأخذ هنا مثالًا بسيطًا من عالم الأدب (وأيُّ عالم أفضلُ منه في ذلك؟) ليساعدنا على توضيح هذه الفكرة: إنّ النبوغ الفكري يتشكّل من تقاطع القراءات وتآلفها. حسنًا، ما هو عدد الأشخاص –على وجه الأرض– الذين قرؤوا هذين الكتابين: «فلسفة

Twitter: @ketab_n

التجربة الحيّة» لـ ألكسندر بوغدانوف، و«فاوست» لـ إستانيسلاو ديل كامبو؟ فلنضعْ جانبًا لدقيقة واحدة، ردودَ الفعل التي أثارها هذان الكتابان، وكيف كانت أصداؤهما، وكيف تمّ استيعابهما، وكل ما هو شخصيّ ولا يمكن تعميمه. دعنا بدلًا من كل ذلك نركّز على الحقيقة المميّزة لهذين الكتابين معًا، وهي أنّ التقاءَهما في قارئٍ واحد أمرٌ بعيدُ الاحتمال، لكونهما ينتميان إلى بيئتين ثقافيتين متباعدتين تمامًا، ولا يُصنَّف أيٌّ منهما ضمن كلاسيكيات الأدب العالمي. رغم ذلك، من الممكن لعشَرة مثقّفين أو عشرين، على مرّ العصور والأمكنة، أن يكونوا قد رضعوا من حليب هذين الكتابين. لكنْ ما إنْ نُضيف إليهما كتابًا ثالثًا، فليكنْ مثلًا «غبار الشمس» لـ ريمون روسّيل، حتّى يتناقص العدد بشكل كبير، وقد يصل إلى الرقم واحد (أي أنا فقط)، وقد يكون العدد اثنَين، وبالتالي ستكون لديّ أسباب منطقية لأنادي ذلك الآخر بـ «شبيهي» أو «تَوْأَمي». وما إن أضيفَ كتابًا رابعًا إلى الثلاثة السابقة، حتى أتأكد تمامًا من فرادتي الكونية. لكني في الحقيقة لم أقرأ أربعة كتب، فقد وضعت الصدفة وحبُّ الاطلاع آلاف الكتب بين يدي. وإلى جانب الكتب، وليس بعيدًا عن عالم الثقافة، هناك الأغاني والأفلام واللوحات...

كل ما سبق، بالإضافة إلى شريط حياتي المتواصل ليلَ نهار منذ ولادتي وحتى اليوم، أعطاني تكوينًا عقليًا مختلفًا عن الجميع، وهو التكوين العقلي المطلوب على وجه التحديد، لحلّ معضلة «خطّ ماكوتو». ولقد حلَلْتُ اللغز بسهولة فائقة، دون جهد يُذكر، كان الأمر أشبَه بجمع 2+2. بالنسبة إلى حلّ اللغز -وهنا أنقلُ لكم الكلام دون شرح- أفترضُ أن ذاك القرصان المجهول كان توأمي الفكريّ، لكنْ ليس لديّ توأم، وهذا ما جعلني الوحيد القادر على اكتشاف المفتاح

Twitter: @ketab_n

السرّي لحلّ اللغز الذي عجز مئاتُ الباحثين وصائدي الكنوز على مرّ القرون عن حلّه. وكذلك في السنوات الأخيرة، رغم الاستعانة بوسائل حديثة، مثل أجهزة الكشف بالأمواج الصوتية والحواسيب، واستخدام فِرَق من الخبراء متعدّدي الاختصاصات. فقد كنتُ الرجُل الوحيد، الأوحدَ دون شكّ، الرجُل المختار لذلك.

لكنْ أُحذّرك؛ لا تفهم التفرُّد بالمعنى الأدبي للتفرّد، لأنّ أيّ شخص يملك الخبرات التي أملكها (كلّ الخبرات، فمن المستحيل تحديد ما هو أساسيّ منها، وما هو ثانوي)، يستطيع فعلَ ما فعلت. وليس بالضرورة أن تكون الخبرات الأدبية هي ذاتها، ففي الأعمال الأدبية توجد مُعادلات موضوعية.

لذلك لم أكن مغرورًا أو مفتخرًا بما حدث، فالفضلُ كله يعود إلى المصادفة التي وضعتْني، أنا بالذات، في المكان المناسب. (فندق «لاس كوينس ليتراس»، في الأول من نوفمبر، تحديدًا بعد الظهيرة، في حالة من الفراغ والملل، بعد أنْ تأخّرتُ عن موعد الطائرة، وصار لزامًا عليّ الانتظار إلى الغد). في طريقي إلى المكان المناسب، لم أكنْ أفكّر في «خطّ ماكوتو»، بل إنّي نسيتُ وجوده تمامًا، ولذا تفاجأتُ حينما رأيتُه على بُعد بضع خطوات من الفندق، وكأنه تذكارٌ تركهُ لي أحدُ القراصنة الذين قرأتُ عنهم في طفولتي.

وللأمانة العلمية، فقد حُلَّ لغزٌ آخر عند حلّ اللغز، وهو كيف استطاع هذا الحبل («الخطّ» في المسألة) مقاومة العوامل الطبيعية طوال هذا الزمن؟ تستطيع الألياف الصناعية الصمود لفترة كهذه، لكنّ «خطّ ماكوتو» لا يتضمّن أيّ مادة صناعية، فقد كشف التحليل المخبري المعمّق الذي أُجري على عيّنة صغيرة مُقتَطعة من الحبل بواسطة ملقطٍ مزوّد برأسين ماسيَّين، أنّ مادة الحبل تتألف من ألياف

Twitter: @ketab_n

الصنوبر واللبلاب الملتفّة على خيط قُنّب.

لم يخطر الحلُّ الجوهري للمسألة في بالي دفعةً واحدة، فقد بقيتُ لساعتين أو ثلاث ساعات أتمشّى وحيدًا، دون أنْ أدرك أنّ دماغي يعمل على حلّ المسألة. أصعدُ إلى غرفتي لأكتب قليلًا، أتأمّل البحر من النافذة، ثم أنزل مجددًا إلى الشاطئ، في حالة متواصلة من الانتظار المُملّ. كان لديّ الوقتُ لمراقبة ظاهرة غريبة قرب الشاطئ، إذ توجد صخرةٌ على بعد ستين قدمًا من الشاطئ، يقفز منها بضعةُ أولاد ويغوصون في البحر. لم يكن لديّ ما أفعله، ولذا كنتُ شاردَ الذهن في لعبة الأولاد هذه، فهي عمل بشريٌّ يترجم سلوك الطبيعة، بدءًا من اكتشاف اللذّة الحركيّة للغطس، إلى الانقباض والاسترخاء العضليّين، ثم تنظيم التنفّس أثناء السباحة... والطريقة التي كانوا يتجنّبون بها هذه الصخور الناتئة من البحر، والمنتشرة عشوائيًا بين الأمواج. كيف يستطيعون الغطس بدقة على بُعد إنشات قليلة من صخرة ناتئة، كانت تكفي لتودي بحياة أحدهم، برؤوسها الحادّة مثل رأس «ميدوزا» ذات الأفاعي؟! إنه الاعتياد. فلربما يقومون بنفس العملية عصرَ كلّ يوم، ما يُعطي لعبتهم الأهمية الكافية لتصبح أسطورة. هؤلاء الأولاد كانوا ظاهرةً اعتيادية بالنسبة إلى شاطئ «ماكوتو»، لكنّ الأسطورة أمرٌ اعتيادي أيضًا. في هذا الوقت من النهار، في هذه الساعة بالضبط، ساعة الشفق في السماء الاستوائية، الساعة التي لم تكن مبكّرة ولا متأخّرةً، بل أتتْ ساحرةً بانسجامها مع مفردات الطبيعة، يمكن القول: هذه الساعة أيضًا جزءٌ من المعتاد.

فجأةً، عمَّ السكونُ في كلّ مكان. أنا، مَنْ لا يفهمُ شيئًا إلا بعدَ بلوغ أقصى درجات الإعياء والاستسلام، فهمتُ فجأةً كلَّ شيء. خطرَ في بالي أن أكتب فكرةً، أبني عليها حبكةً روائية فيما بعد، لكنْ لماذا لا

Twitter: @ketab_n

أعيش أحداث الرواية بنفسي بدلًا من كتابتها؟ وبسرعة ركضتُ إلى الرصيف الشاطئي، حيث يقعُ رأسُ المثلث الذي يشكّله «خطّ ماكوتو»، لمستُ حزمة العُقد برؤوس أصابعي، مُقلِّبًا العُقد المتراكمة، دون أنْ أحاولَ فكَّ أية عقدة منها. كان نشيجُ البحر قادمًا من بعيد، بينما راحَ الحبْل يدورُ حول نفسه بسرعة كبيرة. الجبَلُ الذي شُدَّ الحبْلُ إلى قمّته، بدا وكأنه يهتزّ، أو إنها خدعةٌ بصريةٌ سبَّبها الحبْلُ المنزلق الذي تابع الدوَران حول نفسه حتى الجزء المغمور بالماء منه. المتفرّجون الذين اجتمعوا حولي، والناس الذين احتشدوا عند نوافذ البيوت، كانت أنظارهم جميعًا ترنو إلى عمق البحر...

بعد دقيقة، مع صوتِ قرقعة هائلة، ووسْطَ بركانٍ من الزبد، قفزَ صندوقُ الكنزِ المربوطُ بالحبْل مِن قلب البحر، قفز وارتفع قرابة مائتي قدم في الهواء، توقّف في الأعلى للحظة، ثم هبط عموديًا إلى الأسفل. رحتُ أسحبُ الحبْل نحوي حتّى ارتمى الصندوق على صخور الشاطئ، على مقربة ثلاثة أقدام من مكان وقوفي، من مكان انتظاري له.

لن أشرح ما حدث بالتفصيل، فذلك سيأخذ عدة صفحات، وقد ألزمتُ نفسي بطُولٍ محدّد لهذا النصّ (نحن ما زلنا في بدايته)، حرصًا مني على وقت القارئ العزيز. لكنْ ما تجدر الإشارة إليه، هو أني لم ألزمْ نفسي بحلّ اللغز نظريًا فحسب، بل عمليًا أيضًا. أعني: بعدما أدركتُ ما ينبغي عليّ فعله، ذهبتُ إليه وفعلتُه، وقد استجاب الهدف لي.

هذا الخطّ، هذا القوس المشدود منذ قرون، أطلقَ سهمَه أخيرًا، واضعًا عند قدميّ الكنز الغارق، جاعلًا مني رجلًا ثريًا في لحظات. كانت لهذه النقطة فائدة عمليّة كبيرة، فأنا رجل فقيرٌ من يوم وُلدت، وخصيصًا في الفترة الأخيرة، بعد أن عشتُ سنة كاملة في حالة كساد

Twitter: @ketab_n

اقتصادي. وفي الحقيقة كنتُ أتساءل دومًا؛ كيف أخرج من هذه الأزمة التي تتفاقمُ يومًا بعد آخر؟ مشكلة أعمالي الأدبية أنها محاطة بهالةٍ من السموّ الفني البديع، ما يجعلُها لا تحقق مبيعاتٍ جيدة. والمشكلة المريرة نفسُها تنطبق على أعمالي العلميّة، فهي محاطة بستار من السرية والكتمان، وهذا ما سأتحدث عنه فيما بعد. منذ زهرة شبابي وأنا أكسبُ رزقي من عملي في الترجمة، ومع مرور الوقت طوّرتُ مهاراتي بشكلٍ احترافي، وصنعتُ لاسمي هيبةً ونفوذًا. وخلال السنوات الأخيرة نعِمتُ باستقرار مالي مريح، ولو أنه ليس وفيرًا، لكنه كافٍ بالمقارنة مع نمط حياتي المتقشّف. وفي هذه الأيام، أثّرت الأزمة الاقتصادية على مهنة النشر بشكلٍ واضح، فهي تدفع اليومَ ثمنَ سنوات الرخاء السابقة. لقد ساهمت سنواتُ الرخاء بازدياد عدد النسخ المطبوعة، فاكتظّتْ مراكزُ البيع بالكتب المحلية الإنتاج. وعندما اتّجه الناسُ إلى ادخار المال أثناء الأزمة، كان شراءُ الكتب أوّلَ نفقةٍ يتخلّون عنها. بعد ذلك وجد الناشرون أنفسَهم محاطين بأعدادٍ هائلة من الكتب التي لا تُباع، فلم يبقَ أمامهم من حلٍّ سوى التوقّفِ عن طباعة كتب جديدة. ولقد توقّفوا فعلًا، حيث أني قضيتُ السنة الماضية بأكملها دون عمل، أنفقُ من مدخّراتي بحزن عميق، وأرنو إلى المستقبل بخوفٍ متزايد. وبناءً على ما ذكرت، يمكنك أن تعرف كم جاءت هذه المصادفة في وقتها المناسب جدًا.

هنالك سبب آخر يدعو إلى التعجّب، أتساءل كيف استطاع الكنز المخبَّأ منذ أربعة قرون الحفاظَ على قيمته؟ وكيف ظلّتْ هذه القيمةُ باهظةً جدًا؟ أتساءلُ بالمقارنة مع الانخفاض السريع في قيمة العملات المتداولة في بلداننا، والتغييرات التي تطرأ على تسمية العملات كل بضع سنوات، والتحوّلات المتكرّرة في السياسات الاقتصادية. من

Twitter: @ketab_n

منظور آخر؛ لطالما كانت الثروةُ أمرًا صعب التفسير، عكسَ الفقر. في هذه اللحظة أنا رجُل ثريّ، وهذا كلّ ما في الأمر. ولو لم يكن واجبًا عليّ أن أسافر غدًا إلى «ميريدا»، لأوفي بالتزام تعهّدتُ به، ولم أستطع التنصُّل منه، لكنتُ سافرتُ إلى باريس أو نيويورك لأتباهى بثروتي وأتبجّح مثل أيّ مُحدَث نعمة.

وهكذا إذن، استيقظتُ في صباح اليوم التالي بجيوبٍ ممتلئة، مسبُوقًا بهالة من المجد، إذ انتشرَ الخبرُ في الصحافة العالمية. ثم ركبتُ طائرةً حملتْني إلى تلك المدينة الجميلة الواقعة في جبال الأنديز، حيث يُعقد المؤتمر الأدبي، وهو موضوع هذه القصة.

Twitter: @ketab_n

الفصل الثاني
المؤتمر

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(1)

لكي أكون مفهومًا، ينبغي أنْ تكون السطور التالية شديدة الوضوح وعميقة التفصيل، حتى في المواضع التي تتطلّب بلاغةً أدبية. لكني لنْ أستغرق في سرد التفاصيل، لأن إطالة النصّ بشكل زائد، تشوّش تركيز القارئ. بالإضافة إلى ما ذكرته سابقًا، وهو أني ألزمتُ نفسي بطول معيّن لهذا النص. وفقًا لمتطلّبات الوضوح (غموض الشعر يرعبني)، ووفقًا لميولي الفطري إلى عرض الأفكار بشكل متسلسل؛ أعتقد أنّ الأنسبَ لي هو البدءُ من البداية. لا أقصد بداية هذه القصة، بل بداية القصة التي سبقتْها، تلك البداية التي جعلتْ من الممكن أن تكون هنالك قصّة أصلًا. وهذا يتطلّب مني العودة بضع خطوات إلى الوراء، إلى الحكاية التي أعطت السردَ منطقَهُ. فـ«الحكاية» التي نحن بصددها تستمدُّ منطقها من حكاية سابقة، رغم الاختلاف في مستوى الخطابين. إن نهاية أي قصة تشكّل بدايةً منطقيّة لقصة أخرى، وهكذا دواليك. وفي النتيجة، ملأتُ حَبْكتي القصّتين بعناصر مترابطة، محكومة بعلاقة تكافُئية لا تماثُليّة.

كان ياما كان في حديث الزمان، كان هنالك عالم أرجنتيني يجري اختباراتٍ وتجارب حول استنساخ الخلايا، وكذلك الأعضاء والأطراف، وقد وصل إلى درجة من الكفاءة العلميّة جعلته قادرا، متى شاء، على استنساخ الأفراد بأعداد غير محدودة. في البداية، عملَ على استنساخ الحشرات ثم الحيوانات الزاحفة، وبعدها الكائنات

Twitter: @ketab_n

البشرية. لكنّ نجاحه لم يكن كاملًا، فعندما أجرى تجاربه على الكائنات البشرية، تغيّرتْ طبيعةُ الخلايا المستنسَخة عن الخليّة الأصل، أي أنتجتْ خلايا غير متشابهة. ولقد تجاوز مشكلة عدم التشابه بقوله: «إن مفهوم التشابه، في نهاية الأمر، مفهوم نسبيّ وإشكاليّ على الدوام». لم يشكّك العالمُ في يوم من الأيام، في أنّ خلاياه المستنسَخة أصليّة، وفي أنه قادر على استنساخ فيالق من الخلايا تتضاعفُ أعدادها كما يشاء.

لكنه في أعماق نفسه، أحسّ بأنه قد وصل إلى طريق مسدود، وبأنه غير قادر على المضيّ نحو هدفه الأخير، ولم يكن ذلك الهدف سوى السيطرة على العالَم. ومن هذه الناحية، كان يجسّد الصورة النمطيّة للعالم المجنون في مجلّات الرسوم الهزلية. لقد كان عاجزًا عن وضع هدَف متواضع لحياته، لأن هدفًا كهذا لا يستحقّ إضاعة دقيقة واحدة من وقته. ثمّ اقتنع بأنه لكي يصل إلى هدفه الأخير، فإنّ جيوشه من الخلايا المستنسَخة (جيوش افتراضية في الوقت الحالي، لأنه، ولأسباب عمليّة، لم يستنسخ سوى عيّنات محدودة) لن تنفعه في شيء.

ويومًا بعد يوم، صار أسيرًا لحُلم نجاحه الشخصي، مُتماهيًا أكثر فأكثر مع الصورة التقليدية للعالم المجنون الذي ينتهي دائمًا في سياق المغامرة، ومع سيرورة الأحداث، إلى الفشل. بغضّ النظر عمّا بلَغَتْه إنجازاته السابقة من عظمة في الحقل العلمي الذي يشتغل فيه. ولحسنِ حظّه، لم يكن مجنونًا جنونًا مُطْبِقًا، ولم يُعْم عطشُهُ للسُلطة بصيرته، فقد احتفظ لنفسه بهامش ضيّق من رجاحة العقل، يكفيه لتغيير مسار تجاربه. أولًا اتّبعَ قاعدة «اخدُمْ نفسَك بنفسك»، فصنعَ أجهزةً من الورق المقوّى والزجاجات الفارغة، واستعانَ بآلة

Twitter: @ketab_n

تقطير صينيّة الصنع، وهكذا أثّثَ مخبره في غرفة صغيرة من بيته العتيق. وبما أنه لا يملك مَشْرَحة، فقد كانت خلاياه المستنسَخة تسرحُ وتمرح في شوارع الحيّ. الفقر الذي لطالما سبّب له يأسًا مُزمنًا، كشف عن جانبه الإيجابي أخيرًا، فقد علّمه أنّ تحقيق الأهداف ممكنٌ عن طريق تغيير الأساليب المتّبعة تغييرًا جذريًا، دون حاجةٍ إلى تغيير الموادّ أو المعدّات. وقد شجّعه الفقر على المغامرة العلمية دون أيّ خوف على تجهيزاته واستثماراته، فهي إمّا غير موجودة، أو ليست لها قيمة أصلًا.

لقد أثبتتْ تجاربه الأخيرة، أنه يستطيع خلْقَ كائن بشري من خليّة واحدة، كائن متطابق، وكأنه توأم بالجسد والروح مع الشخص الذي أُخذتْ منه العيّنة. ليس واحدًا فقط، إذ يمكنه مضاعفة الأعداد متى يشاء. كل شيء على ما يرام إلى حدّ الآن، لكنّ الصعوبة الوحيدة، فلْنقُل المفارقة، أنه يريد لهذه المخلوقات أن تكون تحت رحمته، لا أنْ يكون هو تحت رحمتها. عليها أنْ تُطيع أوامره، لا أنْ يُطيع أوامرها. إذ لم يجد سببًا مُقنعًا لذلك: «هذه الكائنات لا تملك أيّ هيبة أو فكْر أو أصالة». هذه الحيثية أعاقتْ تجاربه عن التقدّم نحو الأمام، فهو سيبقى في كل الأحوال مسؤولًا عن الخطوة الأولى. فماذا يمكنه أن يفعل؟ وحتى لو ألقى مسؤوليةَ خلْقِ فيالق من الكائنات المستنسَخة عن كاهله، ماذا سيفعل لكي يبلغ هدفه النهائي المتمثّل في السيطرة على العالم؟ هل يُعلن الحرب؟ هل يشنُّ هجومًا كاسحًا على القوى العظمى؟! على الأغلب سوف يُهزَم، فهو لا يملك الأسلحة، ولا يعرف من أين يستوردُها، والأسلحة لا يمكن إنتاجُها عن طريق الاستنساخ، لأنه يصلُح فقط للمواد العضوية الحيّة. وهكذا فإن الحياة هي العنصر الوحيد الذي يمكنه الاعتماد عليه، ولو أنّ مضاعفة أعداد المخلوقات

Twitter: @ketab_n

الحية لا يمكن اعتبارها سلاحًا في حدّ ذاتها، وسط هذه الظروف، وعن طريق الاستنساخ.

في هذا الجانب تحديدًا، يختلف عالمُنا عن الصورة المبسَّطة للعالم المجنون الذي يقاوم بعناد، وبتصميم مدمّر للذات، في سبيل الحافظ على الدور المحوريّ لنباهته. أمّا عالمُنا هذا، فقد وصل إلى قناعة مفادُها؛ أنه يمكنه أن ينجز «قفزةً إلى الأمام» فقط، من الدرجة التي يقف عليها إلى درجة مستقبلية. أي أن يضع فكْرَهُ في خدمة عالم آخر يأتي بعده، وقوّته في خدمة قوة أعظم تجيء بعده... هذا في حال تحطّمتْ إرادتُه ذات يوم، تحت منظومة التجاذبات الخارجية. وهنا تكمن فرادتُه التي لن تتكرّر (مهما استمرّ تكاثرُ العلماء المجانين على كوكب الأرض)، وهي الاعتراف بأنّ الفكرة التالية تكون دائمًا أكثر فعالية من الفكرة الأولى، لمجرّد أنها تحمل فضيلة «التالي». فالفكرة لا تغتني ولا تُثرى عن طريق انتشارها، ولا عن طريق مضاعفتها بالاستنساخ، بل عن طريق انتقالها من عقلٍ أوّل إلى عقلٍ ثان.

إذن، ماذا عليه أن يفعل؟ الحلّ الأمثل هو أن يستنسخ الرجُل المتفوّق، السوبر مان، مع أن اختيار هذا الرجل أمر بالغ الصعوبة. فالتفوُّق حالة نسبيّة، وموضوع إشكاليّ أيضًا. إذ لا يمكنك أن تقرّر من وجهة نظرِ شخصٍ واحد، وهي وجهة النظر الوحيدة التي يملكُها الفرد تجاه موضوعٍ معين، مَنْ هو الرجل المتفوّق؟ أمّا اعتمادُ معيار موضوعي لانتقاء الرجل المتفوق، فقد يكون مُضلِّلًا. رغم ذلك، لم يكن أمامه من حلّ سوى تبنّي معيار موضوعي نوعًا ما، ثم إجراء تعديلات عليه رويدًا رويدًا. في المقام الأول، يجب تجاهُل الإحصائيات واستطلاعات الرأي، لأنها ستجعل المسْحَ محكومًا بذوق العامة، وبذلك تتشوّه العيّنة. لأن الذين سيقفزون على رأس الهرم، هم رؤساء الدول،

Twitter: @ketab_n

أقطابُ المال، جنرالات الجيش... لا، إن مجرّد التفكير في الأمر رسَم ابتسامةً على وجهه، لعلّها الابتسامة ذاتها التي يتصوّر ارتسامها على وجوه من شعروا بقوة السلطة عند سماعهم لهذه الكلمات. لقد تعلّم من خبرته الحياتيّة أن القوة الحقيقية – القوة التي تجعل المرء يبتسم بازدراء أمام القوة الظاهرية- تكمن في نوع معيّن من البشر، في الشخص الذي يكون اهتمامه الجوهريّ منصبًّا على الثقافة العليا: الفلسفة، التاريخ، الأدب، والأعمال العظيمة. أمّا هؤلاء المغرورون الذين صنَعَتهم التكنولوجيا الحديثة، ورفعتْهم ثقافةُ العامة، وأولئك الذين كدّسوا ثرواتهم عن طريق المضاربات المالية، فليسوا سوى نماذج عاجزة وغير مجدية. في الواقع، لقد تنكّرت الثقافةُ السامية بقناع ذكيّ، يوحي بأنها قد صارتْ موضةً قديمة ومنتهية الصلاحية، وهذه هي الاستراتيجية المُثلى لإرباك الجماهير ذات اليقين المحض. ولذلك بقيت الثقافةُ السامية في مرتبة الامتياز الأسمى الذي تسعى إليه الطبقة الاجتماعية العليا. لكنّ العالم المجنون لا يفكّر في استنساخ عدد من أبناء هذه الطبقة، لأنه واثقٌ تمَامًا من قدرتهم على إمساك السلطة بقوة، وهذه الضمانة سارية عبر الأجيال المتعاقبة، ولذلك فهُمْ ليسوا مناسبين لغرضه. ثم خطر في باله استنساخُ مجرم خطير، لكنها كانت مجرّد شطحةٍ خيالية، فرضتْها الأصداءُ النيتشويّة لفكرة الرجل المتفوّق.

وفي النهاية، وجد الحلَّ الأكثر سهولةً وفاعلية: نجم مشهور! عبقريٌّ معروف ومُحتفى به، نستنسخ منه عبقريًا آخر. هذه هي الخطوة الحاسمة التي ستثبّتُ قدميه في طريق السيطرة على العالم. أحسَّ بنشوة لحظة الكشف. وبعد هذا القرار، لم يعد في حاجة إلى رسم مخطَّط، أو تعليق آمالٍ صعبة المنال. لأنّ كل شيء سوف يسير

Twitter: @ketab_n

على ما يرام، كل شيء سوف يولد مع ولادة الرجل العظيم، فهو من يتولّى مسؤولية تحقيق الهدف، لكونه يمتاز بقدرات خارقة. وهكذا لن يتحمّل العالم أية مسؤولية (ما عدا مسؤوليّته كمُتَمَلِّق للرجل العظيم، وكمهرّج شنيع)، وبالتالي فإنّ عجزه وفقره وأخطاءه الفادحة، لن تضرُّه في شيء، بالعكس، ستصبح هذه أوراقه الرابحة.

لقد اختار العبقريَّ المناسبَ بحذرٍ شديد، بالأحرى؛ لم يضطرّ لاختياره، لأنّ القدر وضعَه في طريقه، في متناول اليد. العبقريُّ الذي لا يشكّكُ أحدٌ في عبقريّته، ولا يجرؤ أحد على انتقاده، العبقريّ الذي بلغ درجةً من الاحترام والتقدير ترقى إلى التقديس؛ هذا هو الهدف، وقد بدأ العمل عليه دون تأخير.

القول «في متناول اليد» ضربٌ من المبالغة، ففي ثقافة زمننا، يعيشُ المشاهيرُ وسطَ جدرانٍ حصينة من الخصوصيّة، ويتنقّلون ضمنَ قلاعٍ لا مرئية، لا يستطيع أحد اختراقها. لكنّ المناسبة التي دُعيَ إليها هذا العبقري، لكي يزيدَ من حصانة جدرانه، شكّلت الفرصة المواتية لخرْقها... ولم يكن العالمُ في حاجة إلى الاقتراب من العبقريّ كثيرًا، فكلُّ ما يريدهُ منه هو خَليّةٌ واحدةٌ من جسده، مهما كانت، لأنّ أيّ واحدة منها تحمل الشيفرة الوراثية اللازمة لاستنساخ إنسان كامل. مُجبَرًا على الثقة في القدر الذي أعطاهُ فرصة الحصول على شعرة أو قُلامة ظفر أو فُتاتة جلد منه، قام بتوظيف واحدة من أكثر مخلوقاته إخلاصًا، دبّورةٌ صغيرة خلقَها بالحجم والعمر المناسبين، وزوَّدها منذ ولادتها بالبيانات التعريفية للعبقريّ المذكور آنفًا. ثم أرسلَها في مهمتها السرية ظهرًا، مراعيًا شروط المسافة (كان على الدبّورة أن تطير مسافة قصيرة). لقد وثقَ فيها ثقة عمياء، فقد عرف أنها ستقع تحت رحمة غريزتها القوية، هذه فطرتُها التي لا تُخطئُ الهدف. ولم

Twitter: @ketab_n

تخيّب الدبورةُ أملَه، إذ عادتْ بعد عشر دقائق حاملةً الخليّة بيدها. وفي الحال وضع الخلية على شريحة المجهر الذي يحمله في جيبه، وشعرَ بنشوة الانتصار. لقد أثبتت الاستراتيجية المُحْكمة التي اتبعها نجاحها، فقد كانت خليةً رائعة الجمال، عميقة، مفعمة باللغات، ملوّنة، زرقاء برّاقة. لم يرَ في حياته خليةً مثلها، حتى أنها بدت له خليةً غير بشرية. وضعَ الخلية في آلة الاستنساخ النقّالة التي أحضرها معه، نادى على سيارة أجرة، وطلب من السائق أن يأخذه إلى أعلى جبل في المنطقة. نزل من السيارة وتابع السير على قدميه لعدة ساعات، وعندما وصل إلى قمة عاصفة الرياح، التقطَ أنفاسَه اللاهثة، وراح يبحث عن مكانٍ يضعُ فيه الآلة. لم يكن التكاثرُ على قمة جبل فكرةً رومانسية، بل كان يبحث عن الشروط اللازمة من حرارة وضغط جوّي وارتفاع عن سطح البحر، وهي الشروط التي تتطلّبُها العملية. فلكي ينتج الخلايا صناعيًا، كان ينبغي عليه أنْ يكون في مختبره البسيط الذي يبعد عنه آلاف الأميال في هذه اللحظة. وقد خشيَ بألّا تحتمل الخليةُ مشاقَّ السفر، أو تفقد حيويّتها. وهكذا تركَ الخلية في الآلة على رأس الجبل، وكل ما عليه فعله الآن هو الانتظار.

هنا يجبُ أنْ أتدخّل في القصة لأول مرة، وبشكلٍ جزئي، هذا «العالم المجنون» هو أنـا. أما التعريف بهوية العبقري الذي نستنسخ منه، فسوف يسبب مشكلات كثيرة، لكني لن أضيّع وقتكم في الحدس والتخمين: إنه كارلوس فوينتس[1]. وفي الحقيقة لم ألبِّ الدعوة لحضور المؤتمر الأدبي في «ميريدا»، إلا بعد أنْ تأكدتُ من حضوره

(1) كارلوس فوينتس (1928-2012): كاتب روائي وعالم اجتماع ودبلوماسي مكسيكي، يعدُّ واحدًا من أهمّ كتاب أمريكا اللاتينية في النصف الثاني من القرن العشرين. من رواياته: «أورا»، «العجوز غرينغو»، «الحملة». فاز بعدة جوائز منها: جائزة سرفانتس 1978، جائزة الأمير آستوياس للآداب 1994. وقد رُشّح لنيل جائزة نوبل للآداب عدة مرات. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

للمؤتمر. فقد أردتُ أن أكون قريبًا منه بما يكفي، لكي تستطيع دبّورتي المستنسَخة أخذَ خليّة منه. لقد كانت فرصةً نادرةً للوصول إليه، وإكمال مغامرتي العلمية. فقد قدّموه لي على طبقٍ من ذهب، ولم أضطرّ حتى لدفع ثمن تذكرة الطائرة، وهي التي لم أكن قادرًا على دفعها أصلًا، بعد أنْ تدهورتْ أحوالي كثيرًا في الفترة الماضية، أو وفقًا لما كان الحالُ عليه قبل حادثة «خطّ ماكوتو». فقد أمضيتُ سنةً مريعة، عاطلًا عن العمل، نتيجةً لاستفحال الأزمة الاقتصادية التي أثّرتْ بشكل ملحوظ على عالم النشر. وعلى الرغم من ذلك، لم أوقف تجاربي العلمية، فالمستوى الذي أعمل به لا يتطلّب كثيرًا من المال. وبالإضافة إلى كونها نقطة الانطلاق الملائمة للمُضيّ قُدُمًا في تحقيق أهدافي السرية، شكّلت الدعوةُ إلى المؤتمر فرصةً رائعةً لقضاء أسبوع في المناطق الاستوائية. أسبوع من الراحة والاستجمام، ينتعش خلاله الجسد والروح معًا، بعد سنة طويلة من الهموم والخيبات المتعاقبة.

بعد عودتي إلى الفندق، شهدتْ حالةُ التوتُّر التي عشتُها في الساعات الأخيرة هبوطًا مفاجئًا. فالخطوة الأولى من العملية، الخطوة الأكثر أهميةً ومصيريةً، قد أُنجزَتْ. فها قد حصلتُ على خليّة من كارلوس فوينتس، ووضعتُها داخل آلة الاستنساخ، وتركتُ الآلة تعمل تحت الشروط المثلى. وإذا ما أضفتُ إلى ذلك، اللغزَ العلميّ لـ «خطّ ماكوتو» الذي حللتُه بالأمس، فينبغي عليّ أنْ أشعرَ بالراحة والمسرّة لحظةً بلحظة، وأنْ أبدأ التفكير في أشياء أخرى، وأمامي بضعة أيام مناسبة لذلك.

إن استنساخ كائن حيّ يختلفُ عن نفخ الزجاج، فهو يحدث من تلقاء ذاته، لكنه يستغرق بعض الوقت. ورغمَ أني حاولتُ تسريع العملية بطريقة استثنائية، إلاّ أنها ستأخذ ما يقارب الأسبوع،

Twitter: @ketab_n

متطابقةً مع التقويم البشري، لأنها ستعيدُ –في جانب منها– سيرورة الخلْق بأكملها.

كل ما أستطيع فعله الآن هو الانتظار، ومحاولة تقطيع الوقت، فليستْ لديّ أية نيّة لحضور جلسات المؤتمر الأدبي السخيفة. اشتريتُ ملابس للسباحة، وقررتُ قضاء الأيام المقبلة في المسبح.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(2)

في المسبح، ركّزتُ كلَّ جهودي على هدف واحد: التخفيف من فَرْط النشاط العقلي. فتركتُ نفسي عاريًا تحت الشمس، محاولًا خلْق السلام الداخلي. سبقَ أنْ ناضلتُ من أجل هذا الهدف، في مختلف منعطفات حياتي وتقلُّباتها، وكأنه هاجسي الوحيد. فهذه هي الفكرة الصغيرة والخطيرة التي تقفُ في الوسط بين أفكاري الأخرى، وترفعُ صوتَ الضوضاء النفسيّة، وهي ضوضاء صاخبة جدًا. إنّ فرط النشاط العقلي هو الحالة الاعتيادية التي يعيشُها دماغي، فهو دائمًا كذلك -ولأقول الحقيقة- منذ بلوغي سنّ الرشد. ولقد عرفتُ أنه حالة شاذة، وأنّ الحالة الطبيعية هي التي تعيش فيها معظمُ أدمغة الناس (نصف فارغة)، من خلال القراءة والمراقبة والاستنتاج والحدس. أمّا أنا فلم أجرّب الحالة الطبيعيّة إلاّ في بعض المناسبات، وللحظاتٍ فقط.

في مرحلة سابقة، كنتُ أقرأ عن المجاهدَات النفسية الشرقية، وبعض المقالات الغبيّة عن التأمّل، عادةً ما تُنشَر في المجلات النسائية. وقد عرفتُ منها أن النتيجة المُنتظرة بعد أوّل خطوة؛ هي الذهن الفارغ، الفقدان الكامل للنشاط الكهربائي في قشرة الدماغ، فقدان الوعي، الراحة. وذات يوم، رغم طموحي الشخصي، تمنّيتُ أن أحقق ذلك. أجريتُ كلّ التمارين المطلوبة بثقة تامة، وفي النهاية اكتشفتُ أنّني كنتُ أضيّع وقتي، فهذه الأشياء ليست لي. فأنا أولًا يجبُ عليّ أن

Twitter: @ketab_n

أهبط من قمم النوبات الجنونية، ثم أمسك العِنان بيديّ، لأكبح وحشَ أفكاري الطريد، وأجبرَهُ على التروّي والركض بالسرعة المعقولة. وبعد كل ذلك، يمكنني إلقاء نظرة خاطفة على عوالم النقاء الروحي الشرقية.

لطالما سألتُ نفسي: كيف وصلتُ إلى هذه الحالة؟ وماذا حدث خلال سنوات عمري المنصرمة، حتى ازدادتْ سرعةُ التدفّق الذهني عندي، ثم توقفتْ عند درجة معينة؟ وكذلك سألتُ نفسي (وما الذي لم أسألْ نفسي عنه؟): ما هو المقياس الدقيق لهذه السرعة؟ لأنّ مفهوم «فرط النشاط العقلي» تقريبيّ، وينبغي أن يتضمّن تدريجات.

بالنسبة إلى السؤال الأول، وبغضّ النظر عن كلّ علّاتي، فقد تأثّرتُ بـ «أسطورة الخلق» بشكلٍ خاص، إذ تنتشر الاقتباساتُ منها والإشاراتُ إليها في كل رواياتي. ومن الصعب عليَّ شرحُ هذه النقطة دون تجريد، لأنّ تشابه الأساطير لا يعني أنها مقتبَسة من صيغة عامة. وبالمنطق نفسه؛ ليست كلُّ الأفكار التي تبرقُ في رأسي موضوعًا للدراسة، أو ضربًا من التفكير.

إن الأسطورة المحتشدة بالأشخاص، دون أن تجمع بينهم حبكة درامية، يمكن تصوُّرها على شكل صمّام المضخّة. وبعيدًا عن المصطلحات التقنية، يمكن تشخيصُها بما سمّاه بودلير «اللا انعكاسية»، فالفكرة المُنطلقة لا تعود إلى المكوّنات التي وُلدتْ منها، ولا تعود إلى العدم الذي جاءت منه. وهذا لا يفسّر الازدحام السكّاني فقط، بل يفسّر حالتي بالأدلّة الملموسة: الحيرة الدائمة، التهوُّر، الانفعال. إن انقطاع أي فكرة عن الظروف التي أنتجتْها، هو الشرط الضروري لأصالتها ونجاحها.

في حالتي هذه، لا شيء يعود إلى الوراء، الكلّ يتقدّم إلى الأمام،

Twitter: @ketab_n

مدفوعًا من ظهره بقوة وحشية، مدفوعًا من قِبَل ما خلْفه في المضخّة الملعونة. صورةُ المضخة هذه، بلغتْ ذروة نضوجها في أفكاري الدائخة، وكشفتْ لي طريق الحل. وليس الحلّ سوى مضاعفة الإفراط، أي «الهروب إلى الأمام»، طالما أنّ العودة إلى الوراء ليس لها حدود. إذن: إلى الأمام! إلى النهاية المريرة! راكضًا... طائرًا... زاحفًا...! مستخدمًا كلّ الإمكانيات المتاحة، مُنتزِعًا السكِّينة من قلب ضجيج المعركة. الوسيلة هي اللغة، لأن الصمّام هو اللغة، وهنا جذر المشكلة.

دون شكّ، ثمة شيء من الزيف والتصنّع فيما قلت، فيما قلتُه عن جهودي للتخلّص من فرط النشاط العقلي. فأنا لا أعتقد أنني في يوم من الأيام، سوف أتخلّى عن فرط نشاطي العقلي القديم والحميم، فهو في النهاية ما أنا عليه. رغم كل محاولاتنا لتغيير أنفسنا، نحن لا نرضى أن نغيّر شيئًا تغييرًا جوهريًا، تغييرًا في الماهية، وهنا تكمن العقدة التي تربطُ كل خيوط علّاتنا. كنتُ استطعتُ معالجة علّتي، ومنذ زمن بعيد، لو كانت علّتي مرئية، كالعَرَج أو حَبّ الشباب، لكنها ليست كذلك. لا أحد في العالم يعرف شيئًا عن الإعصار الفكري الذي يعصف تحت مظهري الهادئ الفاقد للإحساس، إلا –ربما– من خلال مبالغتي بعدم الإحساس، أو عندما أستطرد وأنحرف عن الموضوع الذي أتورّط فيه، فأتخلّص منه لأتورّط في غيره. أو ربما يستطيع ناقد أدبي فوق بشري، كشف ذلك من خلال علاقتي باللغة. يكشفُ فرطُ نشاطي العقلي عن نفسه بوضوح في داخلي، ويتسرّب شيء منه إلى العالم الخارجي عن طريق اللغة (اللغة جسري إلى الآخرين). خُذْ مجازًا، على سبيل المثال، وكلّ شيء مجازٌ في عالمي النفسي المفرط الحركة، كل شيء هو كناية عن شيء آخر... وهذا الكلّ يصنع نظامًا من العلاقات التي تشوّه المجازات، محركًا أجزاءً منها من مجاز إلى

Twitter: @ketab_n

آخر، مشكّلًا بذلك سلسلة متصلة.

الخروج من هذه الحالة، يتطلّب جهدًا جبّارًا مدعومًا بالعلم الحديث. «مبدأ هايزنبرغ»[1] يدخل الآن في المشهد: المراقبة تغيّر خواصّ العنصر الذي تحت المراقبة، وتزيد من سرعته المتّجهة[2] وهكذا، في أعماق نفسي، وتحت عدستي المكبّرة الداخلية، تأخذ كلُّ فكرة صورةَ خليّة مستنسَخة في مرحلة تحوّلها البياني، أي: هوية قيد الإنجاز.

وهذا ما يذكّرني بالإجابة عن السؤال الذي طرحتُه وهربتُ منه: كيف أقيس السرعة المتجهة لأفكاري؟ سأجرّب هذه المرة منهجًا من ابتكاري: أرمي فكرةً فارغةً تمامًا وسطَ جميع أفكاري الأخرى، وبما أنها فارغة ولا تحمل أيّ مضمون في داخلها، فسوف تخرج أفكاري الباطنية من مخابئها وتستقرّ فيها، وتصبح الفكرة الفارغة مليئةً بمضامين تلك الأفكار.

ثمة رجل صغير استنسختُه في داخلي، هو عدّاد سرعتي الذهنية، ورفيقي الوحيد في طرقات العزلة، والحافظ الأمين لكل أسراري.

---

(1) فيرنر هاينزبرغ (1901-1976): عالم ألماني حائز على جائزة نوبل في الفيزياء 1932. وما قصده الكاتب من «مبدأ هاينزبرغ» أو «مبدأ عدم التأكّد»: هو أن القوانين الأساسية للفيزياء تمنع أي عالم، مهما كانت ظروفه مثالية، من الحصول على معلومات مؤكدة تمامًا. (المترجم).

(2) السرعة المتجهة: هي المسافة التي يقطعها الجسم في وحدة الزمن، وهي قيمة متّجهة، أي تتميز باتجاه معين. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

(3)

أنا الآن بكامل فكري وبكامل جسدي، ولا تناقض في ذلك، لأن جميع «الكمالات» يتراكب بعضُها فوق بعض... إن مفهوم «الكمالات» متقلقل بعض الشيء، وحدَه الموضوع في حالة الحركة يستطيع مقاربته، وعندما يبلغ نقطة معينة يُعلن فيها عن بلوغ الكمال، يتحول إلى حقيقة. هذه هي حقيقة الكون المحدود خلال تلك الأيام التي قضيتُها مستجمًّا تحت الشمس الاستوائية، في مسبح الفندق الفاخر الواقع في ضواحي المدينة. بينما تتابع تجربتي العلمية سيرها في مكان آخر. ما يحزنني أن هذه السعادة لن تستمرّ إلا لبضعة أيام، لأسبوع واحد. إن متعة الاسترخاء اللذيذ تجعلُني أتمنى أن تكون الحياة بكاملها هكذا، بل العالم بكامله، ليصبح كامل «الكمالات». كان طبيعيًا بالنسبة إليّ أن أدخل في موضوع «الكمالات»، فجسدي يحبّه، جسدي يفتخر بكماله، يشعُّ كمالاً.

نزل بعض الأشخاص إلى المسبح، منهم ذكور وإناث في سنّ المراهقة، وبعض الأطفال مع أمهاتهم، ورجُلان وحيدان مثلي. في بعض الصباحات، لم يكن أحد في المسبح، وكان المنقذُ يسبح وحدَهُ حزينًا، دورةً إثر دورة في الماء، ثم يجلس على كرسيه مقاومًا النعاس، وبعدها ينهض لالتقاط الحشرات الغريقة التي تطفو على سطح الماء، بواسطة شبكة بديعة التصميم. كان ماء المسبح نظيفًا للغاية، وكأنه كريستال ملمَّع (يمكنك أن تقرأ جريدةً وأنت جالس في قعر المسبح).

Twitter: @ketab_n

الزملاء الذين استضافوني هنا، أخبروني أنّ قلةً نادرة من الناس قد تأتي إلى المسبح... في الحقيقة لم يصدّقوا عندما أخبرتهم بأنّني لستُ الوحيد في المسبح. فمن سيفكّر، كما قالوا، بالسباحة في منتصف الشتاء؟ هذا صحيح، نحن في الشتاء، لكن الوقوع عند خط الاستواء يجعل الأمر مختلفًا بالنسبة إليّ. وبما أنني مقتنع بأنّنا ما زلنا في فصل الصيف، فقد بقي الطقس صيفيًا، والحياة كذلك.

ثمة أمر أثار فضولي، راقبتُه وودتُ الكتابة عنه، هو أنّ جميعنا، جميع من جاؤوا إلى المسبح في هذه الأيام القليلة، ودون أن يعرف أحدُنا الآخرين من قبل، ودون أي اتفاق فيما بيننا، نُعتَبر نماذج مثاليّة من الجنس البشري. ما أعنيه هو أننا جميعًا نبدو بشرًا، بكامل أعضائنا الجسدية وعضلاتنا المنسجمة وأعصابنا المنتشرة في أماكنها الصحيحة. الكمال الجسدي ميزة نادرة بين البشر على وجه التحديد، لأنّ أيَّ عيب صغير يشوّه هذا الكمال. إذا راقبتَ الناس العابرين في الشارع، فلن ينجح أكثر من واحد بالمائة منهم في اختبار الكمال، أمّا البقية فكلُّهم مُسُوخ. لكنّ ما فاجأني حقًا، هو أن جميع من ارتادوا المسبح (وهم أشخاص يتغيّرون في كل يوم، ما عداي)، يشكّلون حشدًا من ذلك الواحد بالمائة. وأتمنى أن تكون الصورة هكذا على الدوام، في كل تجمّع بشري عفوي. كان رُوّاد المسبح منتشرين بملابس السباحة، يُسمِّرون أجسادهم تحت لهيب الشمس، ولم تكن هناك أي غرفة أو ستار يستطيعون الاختباء خلفه. كم أراحَ هذا المنظرُ عينيّ وذهني، فلم أشاهد أيَّ عيوب، لأنها ليست موجودة. إنّ الانحراف عن القانون الجسماني يولّد المسوخ، كل أنواع المسوخ، بما فيها تلك التي لا نميّزها عن طريق الحواس. إن إصبع قدم واحدة، في حال كانت أطول أو أعرض من اللازم بقليل، تكفي لخلْق صنف

Twitter: @ketab_n

من المسوخ. خليّة واحدة، خطأ مطبعيّ في الشيفرة الوراثية للخلية، قد يحدث لسبب ما، يمكّن المسوخ من القفز إلى الشبكة التي تحمل البشر إلى سطح الأرض. وتبقى المسوخ طافيةً على سطح الحياة، مثل شياطين ديكارتيّة تتقلّب بين أمواج الشكّ واليقين. أعرف الكثير عن هذه الموضوعات، فهي من اختصاص الفرع العلمي الذي أشتغل فيه.

أما الكاملون، في المقابل، فجميعُهم مختلفون. الكمال، في جوهره، هو كمال الاختلاف. ولذلك فإن زراعة الكمال تتطلّب التضافر مع ما عرّفه أحد التلاميذ الصغار مرةً، على أنه المهمة التي يجب أن نكرّس حياتنا من أجلها: خلق الشخصية الفردانية.

جعلتْني أحلام اليقظة كالمشلول، فلساعات طِوال وأنا ممدَّد كالخشبة على كرسي المسبح، وهذه الساعاتُ لا تكفي، لأن فنّ تحويل الجسد إلى جسد كامل يتطلّب نهارًا أبديًا، أو صيفًا أبديًا، أو حياةً أبدية... وكما هو الجوّ في المناطق الاستوائية، كما هو هذا الصيف الخريفيّ الذي جاء في غير وقته، تُلقي الأبدياتُ بظلالها على نفسيّة الغريب فقط، بينما لا يراها بقية الناس.

أليس هذا المنهج عمليًا أكثر من الاستنساخ؟ وهل يستطيع أحد منعي من اعتماده؟ أنا الآن رجل ثري، شكرًا يا «خطّ ماكوتو» (وقعت حادثة الإثراء مؤخرًا، لم أعتدْ على الفكرة بعد). أستطيع أن أستوطن تحت السماء، وأعيش عاريًا تحت الشمس دون خشية من أي شيء. ولستُ مضطرًا أبدًا لتغيير مجال عملي: الأدب والاستنساخ والتحوُّلات...

استيقظتُ من أحلامي فجأةً، عندما تذكّرت العمل الهامّ الذي بين يديّ. غصتُ في الماء مرة أخرى، سبحتُ قليلًا، ثم تمشّيتُ حول المسبح، تاركًا الشمس والنسيم العليل يجفّفان جسدي. كل ما أراه

Twitter: @ketab_n

حولي الآن، هو الجبال العالية ذات القمم المغطاة بالثلج. وهناك في الأعلى، في نقطة لا يصلُها أحد، تقوم آلة الاستنساخ بمهمتها السرية.

رأيت ظلّي ممدًا أمامي على الأرض، إنه ظلّ بشري حتمًا، لكنه غريب وعنيد. مددتُ ذراعيّ على الجانبين، رفعتُ ساقيّ، حنيتُ خصري، أملتُ رأسي، فقام الظلّ بمحاكاتي تمامًا. فهل سيقلّدني الظلّ في حال فردْتُ أصابع يدي إصبعًا إصبعًا؟ تركتُ نفسي أرقصُ رقصة التحقق والتأكّد... صار الناس يرمقونني بأطراف عيونهم مستغربين... عندما تكون مسافرًا إلى مكانٍ لا يعرفك فيه أحد، تشعر بأنك محصَّن، مُفلتٌ من العقاب. لكنّ حالتي لم تكن كذلك، فقد حمل النسيمُ إليّ فتاتًا من كلامهم، وعرفتُ أنهم يقصدونني: «كاتب مشهور»... «خطّ ماكوتو»... «رأيتُ صورته في الجريدة»... صدق من قال: مَنْ أمِنَ العقوبة أساء التصرُّف، وهذا ما جعلني أرقص، وما همّني لو بدوتُ سخيفًا؟ فأنا في طريقي لخلق جيش كامل مُفلِتٍ من العقاب، ولا أحد يعرف ذلك.

Twitter: @ketab_n

(4)

الحدث الوحيد الذي قطعَ سلسلة الأيام التي قضيتُها في أحضان الراحة والاستجمام، وقع في ليلة الأربعاء، وشعرتُ بأني مجبَر على القيام بطقوسٍ خاصّة جدًا. ففي ذاك المساء، ماتت الدبّورة.

قبل يومين من الحادثة، كانت حيّة تُرزق، تعيش في هناء داخل القفص الذي حملتُها فيه من بيونس آيرس، فخورةً بما أنجزته لي، بعدما حملتْ إليّ خليةً من كارلوس فوينتس. حينما قررتُ أنْ أجلبها معي إلى هنا، عرفتُ أن رحلتها قد تكون ذهابًا دون إياب، فهذه الحشرات تعيش حياةً قصيرة جدًا، وقد كان عمرها خمسة أيام في بداية الرحلة، وفي الحقيقة لقد عاشت أطول من أبناء جنسها. بعدما أنجزت الدبورة مهمتها بكفاءة عالية، لم أعد في حاجة إليها، وكان بإمكاني التخلّص منها، هي وقفصُها الصغير. وهكذا لا أتركُ خلفي أيّ أثر يدلُّ على ما أقوم به، لأنّ السفر معها جعلَني في حالة دائمة من القلق والخوف، ولذلك أخفيتُها عن عيون الناس. وفي الحقيقة استفدتُ من ثغرة قانونية، وهي عدم وجود قوانين دوليّة تمنع نقل الكائنات المستنسَخة، فموظفو الجمارك لديهم حساسيّة تجاه نقل المخدرات، والطفرات الجينيّة، والأسلحة البيولوجيّة قد تسبّب لهم بعض المشاكل. وبالتالي لم يكن لديّ خيار سوى إحضارها معي، ولحسن الحظ سارت الأمور على ما يرام.

حاولتُ ألّا يعرف أحدٌ في الفندق بوجودها، فأنشطتي العلمية في

Twitter: @ketab_n

غاية السرية، وإعطاء أي تفسير لأي شيء قد يسلّط الأضواء عليّ، خاصةً إذا ما افتُضِح أمري بأني أستخدمُ الكاتب المكسيكي الكبير في تجاربي. كان التخلّص من الدبّورة حين صرتُ في غنًى عنها؛ عين الحكمة والصواب. وما كنتُ لأندم أو آسَفَ على فعلتي هذه، لأنها في كل الأحوال ستموتُ موتًا طبيعيًا بعد أيام. لكنّ وفائي لهذه المخلوقة الصغيرة تغلَّبَ عليّ، وفضّلتُ أن أتركها حُرّة، لتموت حين تشاء، فمن حقها أنْ تكمل دورة حياتها. وكأنّ الطبيعة قد توسّطتْ بيني وبينها، وحكمَتْ وفقًا لشريعتها المقدسة.

ومع أنني لم أثق في الخادمات العاملات في الفندق، نظرًا إلى فضولهنّ وفوضويّتهن، إلا أنني اعتدتُ تركها في الغرفة. كان بإمكاني حملُها في جيبي أينما أذهب، لكني وثقتُ في الخادمات أكثر من ثقتي في عقلي الدائم الشرود والسَّهْو، فأنا دائمًا أضيع الأشياء، أو أنساها في مكان ما، أي مكان. ولهذا تركتُها في الغرفة وحيدة خلال الأيام التي كرّستُها للجلسات الهامة في المسبح، بعدما أودعتُها في مكان مقفل، وأخذتُ المفتاح معي. وحين كنتُ أعود إلى الغرفة مساءً، أُخرجها من المخبأ وأضعُها في قفصها الصغير على طاولتي، حيث أجلس وأقرأ. وبالإضافة إلى إخلاصي الوفيّ لها، نشأتْ علاقة حميمة بيني وبينها، فهي رفيقتي الوحيدة في هذه الرحلة، وهي تذكار من حياتي القديمة في بيتي ومخبري، يا لها من جوهرة أرجنتينية رائعة.

عندما أتحدث عن «دبّورة» أو «حشرة» بهذه الطريقة، فهو ضربٌ من التبسيط اللغوي الجائر، لكني مضطَر إليه لكي يغدو كلامي مفهومًا. فمن أجل خلق هذه الدبّورة، استخدمتُ الحمض النووي لدبورة أخرى، فأنا أريد خصَالًا خاصة بالدبابير. لكني استخدمتُ الحمضَ كما يُستخدم تمثَالُ عرض الملابس فقط (عدتُ إلى اللغة

Twitter: @ketab_n

الاصطلاحية الغريبة)، لأن المهمة تتطلّب خصالًا أخرى لا توجد في الدبابير، وهذا ما استخلصتُه من «قاموس الجينات». وعندما استخدمتُ دبّورةً كما يُستخدم تمثال عرض الملابس، ولم أستخدم نحلةً أو يُعسوبةً بدلًا منها، فإن ذلك يعود إلى قدرتها الكبيرة على التوافق مع جينات الحشرات الأخرى. وفي الحقيقة جاء المخلوق الجديد شبيهًا بالدبور، وأقول للمبتدئين: كانت بحجم حبّة الغبار، وعندما وضعتُها تحت المجهر، بدا شكلُها مثل سمكة حصان البحر، ولها جناحان قويان مثل جناحَيْ فراشة، وثمة شيءٌ هو بين قرن الكركدنّ ومخلب السرطان (لا يمكنني التبسيط أكثر) نما بسرعة من رأسها، هذه هي كلّابتُها. الحقّ يُقال: لقد كانت نمطًا أوّليًا، نموذجًا فريدًا، مسخًا صغيرًا رائع الجمال، لن يتكرر أبدًا.

وكما قلت، وجدتُها ميتة حينما عدتُ من المسبح مساء الأربعاء. لقد استغرقتْ حياتُها أسبوعًا، بدأتْ في الأرجنتين وانتهتْ في فنزويلا، آلاف الأميال نحو الشمال. تأمّلتُها بصمت عميق، وحزنتُ من كل قلبي عليها. جثّتُها التي أصبحت نصف شفافة، واكتسبتْ مسحةً من البريق الكهرمانيّ، لم تكن أكثر من بقعة على أرض بيتها الصغير الذي لن يسكنه أحدٌ من بعدها، فقد شيّدتُ هذا البيت بنفسي من أجلها وحدها. حين تحدثتُ عن «قفص» قبل قليل، كنتُ أحاول تبسيط الأمور، فهو في الواقع حُجْرة بحجم الكشتبان مصنوعة من ورق السيلوفان. وإثر نزوة عاطفية، أثثتُ الحُجرة على شكل شاليه سويسري، وزوّدته بغرفة نوم مصنوعة من سمك الجَلَكي. فأنا كامل يتوخّى الكمال في كل أعماله، وقد استخدمتُ جينات تلك السمكة في بناء غرفة النوم. لقد قدّمتُ لها جهاز عرسٍ لا مثيل له.

عندما حلّ الليل، نزلتُ لتناول العشاء في المطعم، ثم أمضيتُ وقتًا

Twitter: @ketab_n

في البار حتى الساعة الحادية عشرة. وعلى غير العادة، شربتُ فنجان قهوة، وهو ما لا أفعله في النهار، لأنني لن أستطيع النوم في الليل، وعندي خوف مزمن من الأرق. لكنْ في هذه الليلة، يجب عليّ أن أبقى يقظًا وصاحيًا، لأنني وضعتُ خطّةً وأدخلتُها حيّز التنفيذ.

بعد فترة وجيزة، أخبرتُ جُلّاسي في البار بأنني ذاهب إلى النوم، لكني كذبتُ عليهم وغادرت الفندق. كانت المدينة خاليةً تمامًا من أي حركة، اتخذتُ الاتجاه المعاكس لمركز المدينة، وسرتُ في الطريق الصاعد بين المنحدرات الجبلية حتّى وصلتُ إلى الطريق الدائري الملتفّ حول المدينة. قطعتُ الطريق وتابعتُ سيري في الأرياف، بين التلال المنتشرة عند أقدام الجبال. أكملتُ سيرًا على الأقدام مسافة بضع مئات من الياردات، حتّى وصلتُ إلى مكان لم أعدْ أسمع فيه أصوات السيارات. كان الضوء الوحيد المتوفر في ذاك المكان، هو ضوء النجوم، لكنها كانت مضيئة فعلًا، وساحرة اللمعان، وقريبة مني، بشكل يجعلني قادرا على رؤية ما حولي بوضوح: الكتل الصخرية الخشنة، الأخاديد العميقة في الوادي، والنهر المتدفق تحت الجسور.

لم أكن أبحث عن موقع محدد، وكان المكان الذي أقف فيه مناسبًا مثل غيره، ولذا أدخلتُ يدي إلى جيبي وأخرجتُ الجثة الصغيرة. في تلك اللحظة، أحسستُ بحركة غريبة بين الكتل الصخرية التي أقفُ فوقها، نظرتُ إلى الأسفل فرأيتُ أشياء تتحرّك، تتحرّك ببطء وانتظام وكأنها زومبيّات[1]. ثم اكتشفتُ أنها نسور روميّة، ذاك النوع الأسود من النسور التي تعيش في الأمريكيتين. لطالما رأيتُها في النهار وهي تحلّق فوق الوادي، لكني أراها للمرة الأولى وهي جاثمة بسكون،

(1) الزومبي: هو ميّت أُعيد إلى الحياة، أو جثة تحرّكها وسائل سحرية. تعود أسطورة الزومبي إلى ميثولوجيا هايتي، وقد استُخدمتْ في السينما مرارًا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

تبدو مثل دجاجات بائسة حدباء الظهر. أظنّ أنّي اقتحمتُ واحدةً من غرف نومها الجبلية، فالمسيرة التي أشهدُها الآن تشي بأنني أيقظتُها بتطفُّلي، أو ربما كانت حقًا من الزومبي. يبدو أنها تشكّل الموكبَ الجنائزي اللائق لتشييع دبّورتي.

أخرجتُ ملعقة شاي من جيب قميصي، حفرتُ بها بعَرْض إنشين وعمق ثمانية إنشات. ثم صنعتُ في قاع الحفرة مدفنًا دائريًا، وضعتُ فيها الشاليه السويسري الصغير المصنوع من السيلوفان، وفي داخله صاحبته الأبدية. أغلقتُ مدخل الشاليه بقطعة نقدية معدنية، ثم ملأتُ القناة العمودية بالتراب مستخدمًا إبهامي. عثرتُ على حصاةٍ ملساء مثلثة الشكل، فوضعتُها فوق القبر كالشاهدة.

وقفتُ أمام القبر بخشوع، وألقيتُ كلمات التشييع الأخيرة: وداعًا يا صديقتي الصغيرة، وداعًا... لن يُكتَب لنا أن نلتقي ثانيةً، لكني لن أنساكِ يومًا... لن أستطيع نسيانكِ مهما حاولتُ ذلك، فلا شيء في العالم يعوّضني عن غيابك.

يمكن للعالم المجنون (وأنا، بل هو أنا في هذه القصة) أن يفتخر بالمجد الذي بلغه، وبإنجازه غير المسبوق، عندما جعل عملية التطوّر بأكملها تخدمُ هدفًا فريدًا ومحدّدًا بدقة، وكأنه ذاهب لشراء جريدة... احتجتُ شيئًا ما ليأتيني بخليّة من كارلوس فوينتس، ولهذا السبب دون غيره، خلقتُ كائنًا يستغرقُ خلقُه ملايين السنوات من التطوُّر والتكيُّف ودرجات الارتقاء الطبيعي... ليقوم بمهمة واحدة فقط، ثم تنتهي وظيفته. إنه مخلوق مُعَدّ للاستعمال مرة واحدة، كأنْ يُخلَق رجلٌ بعد الظهيرة، يمشي إلى الباب ويفتحه، ليرى إذا كان الجوُّ ماطرًا أم لا، وبعد انتهاء مهمته هذه، تنتهي حياته. لا حاجة إلى القول إنّ عملية الاستنساخ اختصَرت الفترات الزمنية الطويلة التي

Twitter: @ketab_n

يستغرقها عملُ الطبيعة، وجعلتها أيامًا معدودات. مع أن العمليتين، في الجوهر، متطابقتان.

Twitter: @ketab_n

(5)

يمتاز عملي بالسرية والخفاء، وبأنه يشمل حياتي بأكملها، حتى في تفاصيلها الصغيرة التافهة، وبأحداثها عديمة الأهمية. إلى حدّ اليوم أسترُ أهدافي الحقيقيّة تحت قناع الأديب اللطيف، ولكوني كاتبًا، فهذا ما يُبعدني عن دائرة الشكوك. وعلى هامش ذلك، قدّم لي هذا القناعُ متعًا عديدة، وأسلوب عمل وحياة محترمين. لكنّ هدفي هو الهدف النمطيّ للعالم المجنون: السيطرة على العالم بأكمله.

أدركتُ أنّي قلتُ عبارةً مجازية قبل قليل، فـ «السيطرة» و«العالم» مجرّد كلمتين، والعبارة التي تجمع بينهما تدخل في مجال الفكر والفلسفة، وتخضع لتأويلات متناقضة... لكني أرفضُ الوقوع في هذا الفخ. السيطرة التي أتحدثُ عنها، أريدُ بسطها في ميدان الحقيقة. فالـ «العالم» ليس سوى مُعطى موضوعي، أي العالم الذي نتقاسمه... لكن التناقض الوحيد، إذا كان هناك تناقض، يأتي من اللغة التي صقلت تصوّراتنا، بحيث صارت الحقيقة الواقعية هي الأكثر انفصالاً وإبهامًا من بين الحقائق الأخرى.

إنّ فتح أبواب الحقيقة هو البداية اللا نهائية لعملي العظيم، وقد سبق لي أن أشرتُ إلى أحد هذه الأبواب (بمجاز طريف): الكمال.

بعد عمرٍ مُعيّن، يهدّد النقصُ كمالَ الجسد، ومن الصعب أنْ نقيّم أنفسَنا موضوعيًا، لأننا نحسبُ أنفسَنا ما زلنا شبابًا، وأنّ الآخرين يكذبون علينا. يصبح الكمال حالة شوقٍ وحنين، تستهلك اهتماماتنا

Twitter: @ketab_n

كلّها، ونغدو مستعدّين لفعل «أي شيء» في سبيل تحقيقه: الحمّية، التمارين الرياضية، ولا نتردّد ببذل أيّ مجهود. لكنّنا لا نعرف هذا الـ «أي شيء» ما هو، ولن نستطيع معرفته، فإذا سألتَ عشرة أشخاص سوف تحصل على عشر إجابات. وهكذا نُبدّد أسمى حالات الشوق والحنين سُدى، إذ نحن مستعدُّون لفعل كلّ ما يلزم، عندما نعرف ما يلزم، ولن نعرف.

وكنتيجة لذلك، ينبغي على الكمال أنْ يحفر طريقه بيديه، فنحن لا نستطيع العثور عليه. المعجزة هي أنه يحدث من تلقاء نفسه، والحياة كريمة في هذا المجال، وهي دائمًا كذلك.

قبل سنوات، في هذه المدينة نفسها، وفي المسبح ذاته، التقيتُ بامرأة ووقعتُ في غرامها. لم أردْ يومَها... ولم أستطع... الاعتراف لنفسي بحُبّها، ولهذا عدتُ إلى بيونس آيرس وإلى حياتي هناك. لكنني لم أقدر يومًا على نسيان أميلينا. وهنا أضيفُ بأننا لسنا على تواصلٍ فيما بيننا، ولا حتى عن طريق الرسائل، لأنني نسيتُ أن أسجّل عنوانها قبل رحيلي، ولهذه الهفوة دلالاتٌ عميقة. لأكون صريحًا؛ لم أشعرْ أنني أستحقُّ حبَّها، فهي شابة بعمر ابنتي لو كانتْ لديّ بنت، خريجة كلية الآداب، وبريئة إلى درجة لا يمكن تصوُّرها. أما أنا فقد كنتُ رجلًا متزوّجًا ولديه أولاد، أكرّسُ حياتي لأنشطتي العلمية السرية، الأنشطة التي تجبرني على اتّباع النفعيّة المكيافيليّة... فأيُّ مستقبلٍ ينتظر علاقتنا؟ ضاعتْ الفرصة حقًا، ومن ناحية أخرى لم تضعْ، فحبُّ أميلينا ما زال يتغلغل في أعماقي، وما زال مصدرَ إلهامي الدائم. الآن، أثناء عودتي إلى هنا، فكّرتُ فيها... لكني لم أرها، هي ما زالت تعيش في هذي المدينة، كما عرفتُ عن طريق الصدفة، ولا بدّ أنها قد عرفت بوجودي هنا من خلال ما كتبته الصحف، لكنها فضّلت

Twitter: @ketab_n

البقاء بعيدة عني. كانت أميلينا تتجنّبني! تفهمّتُ موقفها وسلّمتُ به. وعلاوةً على ذلك، لم أكن متأكدًا بأني سأعرفها في حال التقينا مرة أخرى، فقد مرَّ زمن طويل، وهي على الأرجح قد تزوّجتْ...

ثمة قصّة قديمة، أقدمُ من أميلينا نفسها. فحين التقيتُ بها، وقعتُ في العشق من النظرة الأولى، العشق الساحق العاصف المدمّر... وذلك لأن اللحظة الراهنة أرجعتْني سنوات إلى الوراء، إلى زمن كنتُ فيه عاشقًا ومعشوقًا. حين التقيتُ بأميلينا كنتُ رجلًا ناضجًا، رجلًا فقدَ كلّ آماله في الحياة، رجلًا مهزومًا ومطعونًا في الصميم. آنذاك اعتقدتُ أنْ لا شيء سيُرجع لي شبابي الضائع، وبالفعل لم يرجعه شيء كما هو واضح. لكني عندما رأيتُ أميلينا، رأيتُ فيها صفات فائقة الجمال: صوتَها، عينيْها، أنوثةَ المرأة التي جُننتُ بها في العشرين من عمري. فقد سبقَ لي أن أحببتُ فلورنسيا الجميلة إلى حدّ الوَلَه (كان حبُّنا مستحيلًا)، وبكلّ جنون المراهقين، ولم أتوقفْ دقيقةً عن حبّها. لكنْ لم يُقدَّرْ لنا أن نبقى معًا، فسار كلٌّ منا في درب حياته، هي تزوّجتْ، وأنا كذلك، وسكنّا في الحيّ ذاته. في بعض الأحيان، ألمحُها عابرةً في الطريق مع أولادها الذين يكبرون في كل مرة... مرّتْ عشرون سنة، ثلاثون... ازداد وزنُها، تلك الفتاة الرقيقة الخجول التي كنتُ أعبدُها، تحوّلت إلى امرأة ناضجة مفعمة باحترام الطبقة الوسطى... لا بدّ أنها قد صارت جدّة الآن. غريبٌ ولا يُصدّق! كيف تهرب الحياة سريعًا من بين أيدينا؟ بينما يبقى الزمنُ واقفًا بالنسبة إلى القلب؟!

وُلدتْ فلورنسيا من جديد، بروعة شبابها ورونقه، في أميلينا الجميلة، أميلينا التي قطعتُ قارّةً كاملةً حتى وجدتُها. أحسستُ بالتشابه بينهما في أدقّ تفاصيلهما، في ارتسامة ابتسامتيهما العذبتين،

Twitter: @ketab_n

وفي طموحهما وأحلامهما. لقد شغلَ هذا التشابه حياتي كليًا، وخلقني من جديد، وأعطاني دافعًا للعمل. في السنوات التي تلتْ لقائي مع أميلينا، اندفع عملي العظيم إلى الأمام، متّجهًا نحو هدف محدد، وبدأتُ أحصد ثمار النجاح، لقد كانت فعلًا ربّة إلهامي.

بعد ظهر الخميس، استلقيتُ على كرسي المسبح لآخذ قيلولة صغيرة، وما إن غفوتُ حتى حدث أمرٌ جعلني أرفع رأسي وأتلفّت حولي. في البداية لم ألحظْ أنّ طارئًا قد وقع، إذ بدا رُوَّاد المسبح هادئين، بعضُهم يتحدثون بصوت منخفض، ولفيفٌ من الأطفال يلعبون بالماء. وفي السماء، كانت النسور الرومية السوداء تحلّق في كل مكان. رغم ذلك، كنتُ أشعر به، ثمة شيء ما يتحرّك وسط هذا السكون الوديع... أحسستُ بأنّي دخلتُ في حال تنبُّؤية، وكأنني ممسوس. ما كنتُ أنتظر حدوثه، قد بدأ يحدث، فقفزتُ واقفًا بخفة وتثاقل في آنٍ معًا. هناك، في الجانب المقابل لي تمامًا، على الضفة الأخرى من المسبح؛ رأيتُ تمثالاً من البرونز يطفو على سطح الماء، ثم يخرج من قلب الزبد، ويتمشى على حافة المسبح بلونه الوردي، تمثالاً مُفعمًا بالحياة. لم أخجل لكوني عاريًا، فقد كانت أميلينا قادمة من الفردوس، حيث لا يخجل الإنسان من عريه، تختالُ بألوانٍ فاتنة جمعتْها من شموس الظهيرة وظلالها. نظرتْ إليّ... إلى هذياني، إلى ذهولي برؤيتها كما كانت قبل سنوات، طفلةً تكتشف الحبّ معي للمرة الأولى، بكل دهشة المغامرة الرومانسية. لقد كانت حقيقيةً، أو ثمة شيء حقيقي فيها، دائمًا يوجد شيء حقيقي فيما يحدث، لا يمكن إنكار ذلك. لكنّ لون بشرتها كان غريبًا، وكذلك الضوء الذي يرسم حدودَ جسدها، وكأنه ضوء منسكب من عالم آخر. انتبهتُ مذهولًا أنّ جسدَها لا يُلقي ظلًا خلفه على الأرض، وخلال تقلّباتٍ نفسيّة عاصفة، أدركتُ أني أنا أيضًا

Twitter: @ketab_n

بلا ظلّ، لقد اختفت الشمس من كبد السماء. رفعتُ عينيّ باحثًا عنها، كانت سماءُ الساعة الرابعة عصرًا صافية الزُرقة، لا وجود لأية غيمةٍ فيها، ولا حتى شمس، فقد تبخّرت.

نظرتُ إلى أميلينا مرة ثانية، كانت ذكرياتنا تتشكّلُ من رقصة الضوء والظلّ فوق الماء، ثم تقفز من الماء لتملأ الفضاء المتمدّد فيما بيننا. حسبتُ أنّ ما أراه هو «خطّ ماكوتو» جديد، لغزٌ جديد يخفي كنزًا جديدًا...

فجأةً، اختفتْ أميلينا من المشهد، وغرقتْ ذكرياتُنا بين موجات الماء، وصعدت الشمسُ إلى كبد السماء من جديد، وعاد ظلّي يمتدّ أمامي كالأبله... الظلّ نفسه الذي يرافقني في كلّ مسبح أزوره في جبال الأنديز.

لم أستطع إلاّ النظر إلى أعالي الجبال، إلى المنطقة التي تركتُ فيها آلة الاستنساخ. كان لهذه النظرةِ الفضلُ في إعادتي إلى العالم الواقعي، فعلى الأقلّ أعرف أن ما يحدث هناك في الأعلى ليس حلمًا. وبغض النظر عن الفضاءات العجيبة التي تحلّق فيها أفكاري، فإن العمليّة سوف تتابع سيرورتها، مستقلّة عني، حتى لو كنتُ أنا المسؤول عنها في نهاية الأمر.

ولذلك، يصلُح ما سأقوله خاتمةً لإحدى المسرحيّات: يتألف العمل العظيم مني أنا، متجرّدًا من كل الأشياء الأخرى والتدخلات الخارجية. ويهدف إلى تحقيق مسار متوازٍ مع الكمال المطلق.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(6)

ثمة تزامن دقيق يظهر في مستوى معيّن: التزامن بين السرعة المتّجهة إلى الفكر وبين الفكر في ذاته. كأن تقول إن السرعة المتجهة نحو العمل العظيم –خلق إنسان– هو ما ينجز خلال الامتداد الزمني للحياة في تلك السرعة المتجهة المتواصلة. دون شك، السرعة المتجهة هي العمل العظيم، لكن الحيرة والالتباس يكمنان في المنهج. ولهذا فإن عملي العظيم، عملي السري، شخصيّ بامتياز، لا يمكن نقله إلى شخص آخر، فلا أحد غيري يستطيع إنجازه. وذلك لأنه يتألف من كل لحظات حياتي النفسية والجسدية التي لا تُعدّ ولا تحصى، وهذه اللحظات تشكّل باجتماعها سرعتي المتجهة، السرعة المتجهة التي أنتشرُ فيها عبر الزمن.

توصلتُ إلى هذه النتيجة، عندما كنت أفكّر بذهول وانشداه، في كميّة الأشياء التي تحدثُ معي عندما لا يحدثُ أيُّ شيء. لاحظتُ ذلك عندما كتبَ قلمي هذه السطور: «هناك الآلاف من الأحداث الصغيرة المليئة بالمعاني، ويجب اختيارُ بعضها بعناية فائقة، وإلّا فإنّ القائمة ستمتدّ إلى ما لا نهاية». ومن الطبيعي أن يقع عددٌ أكبر من الأحداث حين تسافر، أكثر مما هو عليه في الحياة الاعتيادية الروتينية. أولًا لأنّ الشخص يكون في حالة الحركة، باحثًا عن أشياء جديدة. وثانيًا لأن قدرتنا على الإدراك تستيقظُ عندما نترك عاداتنا وراءنا، فنصيرُ نرى أكثر ونسمع أكثر، حتى أننا نحلُم أكثر. بالنسبة إليّ كشخصٍ قليل

Twitter: @ketab_n

الأسفار، شخص يعيش حياة روتينية رتيبة، قد تُحدثُ رحلةٌ واحدة تغييرًا هائلًا في حياتي. فالحركة في الجغرافيا تعادل حركة الفكر في الدماغ، فلْنقُلْ إنها المُعادِل الموضوعي لفَرْط النشاط العقلي.

أحاول الآن اختيار بعض الأحداث الصغيرة، بشكل عشوائي، لأدفع هذه القصة إلى الأمام. سأختارُها من الأيام التي قضيتُها في انتظار عملية الاستنساخ، ريثما تُكمل سيرورتها فوق أحد الجبال. تجدر الإشارة إلى أنّ المؤتمر الأدبي الذي دُعيتُ لحضوره، كانتْ فعالياته تجري في تلك الأيام ذاتها، لكني قاطعتُه مقاطعةً كاملة، حتى أنني لا أستطيع تسمية عناوين المحاضرات والندوات المُدْرَجة في جدول أعماله. ولسوء الحظّ، كنتُ مشاركًا في إحداها، ولو أنّ هذه المشاركة -لحسن الحظّ- كانت سلبيةً وغير مباشرة، ولهذا كنتُ آخرَ من يعلم بها.

كانت فعاليّة على هامش المؤتمر، طوعيّة الحضور، تُعقد خارج إطار الجلسات الرسمية، وتتضمن عرضًا لإحدى مسرحياتي القديمة، تقدّمه فرقةُ المسرح الجامعي- كلية العلوم الإنسانية. وقد سبق لهم على ما يبدو تقديم عُروض لمسرحيات من تأليفي، وفي هذه المرة وقع اختيارهم على مسرحيّة «في بلاط آدم وحوّاء». لم يكن اختيار هذه المسرحية بإرادتي، لكني لم أعترض عليها، عندما رأيتُها مدرجةً ضمن جدول فعاليّات المؤتمر الذي أُرسِل إليّ قبل أشهر. وعند وصولي إلى هنا، طلبوا مني حضور البروفات الأخيرة للعرض، وإعطاء موافقتي على الملابس والديكور، والتعرُّف إلى الممثلين... لكني رفضتُ كلّ ذلك بلباقة، وفضّلتُ أن أكون مجرّد واحد من المشاهدين. وبصراحة قبلتُ الذهاب لحضور المسرحية مُحرَجًا منهم، فلا يهمّني أبدًا حضور هذه المسرحية أو غيرها، ولو تُرك الخيارُ لي لما ذهبت. كذلك طلبوا مني أنْ أشرح للممثّلين الدوافع التي دعتْني إلى كتابة

Twitter: @ketab_n

المسرحية، لكنّ أسبابًا راسخةً لديّ، منعتْني من ذلك. السبب الأول هو أن دوافعي لا يمكن شرحُها، والثاني هو مرورُ وقت طويل منذ زمن كتابة المسرحية، فقد نسيتُها نسيانًا كاملًا. هذا ما قلتُه لهم، فشعروا بإحباط كبير، لكنهم لم يُظهروا أيّ استياء تجاهي.

رغم مواقفي السلبية كلها، تدخلتُ في مسألة واحدة فقط، هي مكان عرض المسرحية. كانت المسرحية ستعرض أمام الجمهور في افتتاح رسميّ في المسرح المبنيّ حديثًا، وقبل الافتتاح ثمة عرضٌ خاصّ، وَحدَهُم المشاركون في المؤتمر مدعُوون إليه، ولم يُحدَّد مكانُ العرض الخاصّ بعد. أحدُهم اقترح أن يكون العرضُ في مكان مفتوح، للاستفادة من جمال الطقس في هذه الأيام. سألوني عن رأيي في الموضوع، ولم يكن لديّ ما أقوله، لكنهم أصرّوا وتوقعوا مني أن آتيهم بفكرة غريبة وغير متوقعة. ولذلك اقترحتُ أن يكون العرضُ الخاصّ في المطار، ويقع المطار في وسط «ميريدا» التي تمتدُّ على كامل الوادي الذي تقع فيه. لقد أعجبتهم الفكرة، فحصلوا على التراخيص الرسمية، وبدؤوا بالترتيبات اللازمة.

تعود المسرحيّة إلى المرحلة الداروينيّة من حياتي، لكنها تُنبئ بعملي اللاحق في مجال الاستنساخ. في كل أعمالي الأدبية، أحملُ كراهيةً شديدةً لما يسمّى اليوم «التناصّ»، فلم أضعْ يومًا إشاراتٍ أو تلمحياتٍ ضمنيّة إلى نصوص أخرى، وذلك في كل ما كتبتُ من مسرحياتٍ وروايات. دائمًا أجبرُ نفسي على ابتكار كل شيء، وعندما أجدُ نفسي مضطرًا إلى إعادة تدوير ما هو مُنتَج سابقًا، فإني أفضّلُ اللجوء إلى الواقع. لكني سمحتُ لنفسي أن أخرج عن القاعدة، لمرّة واحدة فقط، كانت في هذا العمل. وذلك لأن «سفْر التكوين» مسألةٌ خاصة، حتى عنوانه فريد جدًا. وإذا افترضنا أن الكتاباتِ الإبداعية والكتابات

Twitter: @ketab_n

المبنية على المحاكاة منتجاتٌ لآلة عملاقة يُديرها علم الوراثة الأدبي، فيجب اعتبار «سفر التكوين» القانون العامّ الناظم لعمل هذه الآلة، على الأقلّ عندنا نحن الغربيين.

قلتُ إن هذه المسرحية القصيرة تُنبئ بأنشطتي العلمية اللاحقة، وهو تصريح مقتضَب، غايتي منه وضع إصبعي على عين الحقيقة. إنّ جوهر فكرة وجود آدم وحوّاء، يعني أن الوجود البشري (والأنواع كلها) يعودُ بأثر رجعي إلى زوجين، وهذا ما أنشأ علم الوراثة. ويمكن القول، إذا أطلقتُ العِنان لخيالي، إنّ علم الوراثة هو «سِفْر تكوين التنوّع». لكن إذا لم يجِد التنوّع أشخاصًا ينتشرُ من خلالهم، فإنه يرتدُّ إلى ذاته، ويتشابكُ ويتعقّد ضمن خواصّه العامة، ومن هنا تولد المُخيّلة.

أذكر عندما عُرضت المسرحية لأول مرة قبل سنوات، قال أحد النقاد إنها «قصة حبّ جميلة». ومن خلال محاولتي استذكار تلك المرحلة من حياتي، أعتقد أن المسرحية تكشف المعضلة التي أعانيها عندما أريد التحدث عن الحبّ. إنّ الوجود المتزامن لآدم وحوّاء في عالم واحد، حيث يجبُ على كلٍّ منهما أن يبحث عن الآخر في متاهة شاقة، هو نظرية الحبّ بعينها. كما إنّ ولادة حوّاء من ضلع آدم حسب الحكاية، كانت أوّلَ عملية استنساخ على الإطلاق. وعندما صارَ عندنا زوجان في المشهد الحكائيّ، بدأ التكاثرُ عن طريق الجنس، واندثر عهدُ الاستنساخ نهائيًا. ميزةُ هذه الحكاية أنها تعود بنا إلى الماضي السحيق، الماضي الذي لا يمكن السَفَر إليه عن طريق المخيّلة، أو المخْيَال الأدبي. أعتقد أن هذه الأسطورة هي من حوّل الماضي إلى مفهوم عقلي، فلولا تأثيرُها، لكنّا اليوم نتعامل مع الماضي كحقيقة واقعية، مثله مثل أي عنصر مُدرَك بالحواسّ.

وكما ألمحتُ قبل قليل، صار الجنس هو الوسيلة الوحيدة للتكاثر،

Twitter: @ketab_n

الجنس وما يسبقه من مناورات عشقيّة متبادلة. كان المشهدُ الأول من المسرحية يجمعُ آدم وحوّاء بعد استنساخها من ضلعه بنجاح، حيث وجدا نفسيهما بطلين رئيسيين في حكاية لا يعرفانها، وهذا ما سيؤثر حتمًا في العاطفة الزوجية بينهما. وبما أن الاستنساخ كان وسيلة التكاثر الأولى، فقد قدّمتُ الجنس كـ تابو جوهريّ في الإنسان، فجعلتُ آدم وحوّاء يقتربان من بعضهما بخوفٍ وتردُّد وارتجاف، كالحيوانات حين تكتشف بعضها لأول مرة.

الآن تذكرتُ الخطوط العريضة التي رسمتْ تلك المرحلة من حياتي، المرحلة التي كتبتُ فيها المسرحية، وأدركتُ لماذا حاولتُ دومًا إخفاءها خلف غمامة من النسيان المقصود، لأنها كانت فترةً مظلمة من حياتي، ربما الفترة الأسوأ والأكثر كآبةً. كان زواجي يمرُّ بمطبّات ويقاسي مصائب بالغة الصعوبة، وكنتُ خائفًا من فكرة الطلاق، مع أنها بدتْ في الوقت نفسه الحلّ الوحيد، لكنها ملأتْ رأسي بمخاوف لا تُحتَمل. في البداية أدمنتُ شرب الكحول، ولأنّ طبيعة جسمي نافرة للكحول، بدأتْ أعراضٌ غريبة تظهر عليّ، أكثرُها سوءًا كان تشنُّج ساقي اليسرى، فقد راحتْ تتصرّفُ وكأنها أقصَرُ من ساقي اليمنى بثمانية إنشات. أعرف تمامًا أن ساقيَّ الاثنين بذات الطول، لكني بقيتُ لأشهُرٍ أعرجُ بوضوح عندما أمشي. وهذه الحالة التعيسة دفعتني إلى تعاطي الأدوية (وهي المرة الوحيدة في حياتي)، فصرتُ مدمنًا على مضادّ الاكتئاب «بروكسيدين»، وأفرطتُ في تعاطيه عدة مرات، وكانت جرعة زائدة منه كافيةً لأن تودي بحياتي. وهكذا، كنتُ مجبرًا على إيجاد طريق للخروج من هذه الحالة.

كانت كتابة هذه المسرحية جزءًا من خطّة العلاج ومرحلة التعافي، وفيها أشرح سبب توظيفي لأسطورة التكوين السابقة للزمن، وهو

Twitter: @ketab_n

شرح أبرّر فيه وقوعي في فخّ «التناصّ» الذي طالما حاولتُ تجنّبه، لكنّ في النهاية هذا ما حدث، ولا تسير الأمور دومًا كما نريد. في المسرحية قدّمتُ فكرة الزواج كحدث غير متوقع أبدًا، فهل يتزوّج آدم وحوّاء؟ ولماذا يتزوّجان؟ بعد أن سبقَ لهما أن مارسَا الجنس، وقبله الاستنساخ.

عادتْ بي الذاكرة إلى تلك الفترة، حين عانيتُ من نوبات هذيان متكررة، سبّبتْها التأثيرات الجانبية لتعاطي العقار. كنتُ كلما أغمضتُ عينيّ، أرى رجُلين يدفع كلّ منهما الآخر بعنف، مثل فارسين متبارزين، لكنهما دون سيوف. كنتُ أراهما من منظور جانبيّ، مرسومين بخطوط حادة، وكلاهما يتّشحان بالسواد. كان للمشهد عمق ما، وكأنه رسم ثلاثي الأبعاد، وقد ترسّخ في ذاكرتي كمشهد يمثّل أعلى مستويات العنف.

وعندما أفتح عينيّ، يتلاشى المشهد كليًا. كانت الكراهية التي يدفع بها كلّ واحد منهما الآخر، تملأ قلبي بالرعب. لم أكن أحتملُها، ولذلك كنتُ أجعلهما يذوبان بمجرّد أنْ أفتح عيني بسرعة، مُختصِرًا المشهد إلى اسكتش سريع من الضرب بالأيدي. ماذا يحدث بعد ذلك؟ لا أعرف! لكني سأعرف في يوم من الأيام.

كان عرض المسرحية يوم السبت، بين الأصيل والغروب. قطعتُ جلساتي في المسبح، استحممتُ، وغفوتُ قليلًا. نزلتُ إلى الأسفل عندما اتصلوا بي، وقالوا إن الحافلة جاهزة للانطلاق. كان زملائي المشاركون في المؤتمر -رجالًا ونساءً- في قمة أناقتهم، وكأنهم ذاهبون إلى دار الأوبرا. وكانت الطالباتُ الشابات المتطوّعات في المؤتمر، يرتدين ملابس فاخرةً أيضًا، وكانت وجوههنّ السمراءُ مُثقلةً بالتبرُّج، ومتوَّجةً بتسريحات شعرٍ بالغة الإتقان، تعلُوها ربطاتُ شَعرٍ حريرية. وجدنا حافلتين في انتظارنا، بالإضافة إلى طابورٍ طويلٍ

Twitter: @ketab_n

من سيارات الأجرة والليموزين. وكالعادة وصلنا متأخرين، صعدتُ إلى الحافلة الأولى التي كان سائقُها يضغطُ على الزمّور بعدما نفدَ صبره، وانطلقنا. واختصارًا للوقت سلكنا الطريق الدائري الملتفّ حول المدينة، وخلال الطريق كنت أتأمّل منظرَ الجبال من النافذة، مستغرقًا في أحلامي الخاصة. إذا كانت حساباتي صحيحة، ففي هذه الليلة سوف يُقرعُ الناقوسُ الأخير، وتُكملُ آلةُ الاستنساخ مهمتها، ويفقسُ العبقريُّ القشرةَ ويخرج منها. لا بدَّ أنّ الغشاء الذي نما في داخله قد توسَّع كثيرًا، وعند الفجر، فإنّ الخليّة التي أكملتْ تكوينها أولًا، سوف تمزّقُ الغشاء وتنزل من أعلى الجبل.

في المطار، كانت ترتيباتُ العرض على أفضل ما يرام، وقد بدأ العرضُ فور وصول آخر الضيوف المدعوّين. ومع أنهم خصّصوا مقعدًا لي في الصف الأمامي، إلّا أنني فضّلتُ مشاهدة العرض من الصفوف الخلفية، واقفًا أو مختبئًا بين ما سمّيتُه «الأجنحة»، أعني أوراق النباتات، إذ كان العرضُ في الحديقة المحاطة بعدد من قاعات الانتظار، وشبابيك التذاكر، وبجوارها يقع البار ذو الواجهة الزجاجية. لقد كانت الحديقة خلّابة، رغم كونها طبيعيةً نوعًا ما، ففي المناطق الاستوائية لا يمكنكَ إبقاءُ الغطاء النباتي تحت السيطرة. كان المشهد كالتالي: شجيراتٌ ذاتُ أزهار كألسنة اللهب تحيطُ بأشجار النخيل، أشجارُ تين البنغال تمدُّ أغصانها الشبيهة بسقف الجَمَلُون في كل الاتجاهات، أوراقُ السرخس تشكّلُ ستائر سميكة، وفي كل مكانٍ تتدلّى الأزهار الصفراء الكبيرة، وأزهارُ البنفسج والأوركيد الزرقاء. كانت أوراق النباتات ضخمة جدًا، بحيث تكفي واحدة منها لكي أختبئ خلفها.

استمتعتُ بالتلصُّص على الحضور من الخلف، كانت عيوني ترى كلَّ واحدٍ منهم رجُلًا آليًّا خارجًا من حقل تجاربي العلمية، ولقد

Twitter: @ketab_n

عانيتُ حقًا من ازدواجية الرؤية في داخلي، قلتُ لنفسي: «لو كانوا بشرًا حقيقيين، فما الذي يفعلونه هنا؟ مستحيل!»، لكن الجانب الآخر منّي كان مُصرًّا على أنهم حقيقيون. كما لو أن الحقيقة ذاتها قلَبت الإطار الزمني، فصار الحاضر ماضيًا، وبالعكس...

قبل سنوات، في هذا المكان نفسه، رأيتُ أميلينا للمرة الأخيرة. يومها تبادلنا كلمات الوداع المفعمة بالوعود والدموع، وما زالت تلك اللحظة حُبلى بالنشوة الروحية السامية. أعرف أني أبحث عنها، أبحث عنها ولا أراها، وكيف أراها عبرَ جدران الحاضر؟ أُدير عينيّ في أرجاء الحديقة الضخمة، وانعكاسها الشفاف على نوافذ الأبنية المجاورة، وخلال هذا الازدحام الشيطاني، يعبرُ الدخان الأبيض للطائرات المنطلقة.

في اللحظة التي نطقَ فيها الممثلُ بالسطور الأولى من حوار المسرحية، تذكّرتُها أكثر مما أرغب، وبدأت الأمور تجنحُ نحو الغرابة. كانت عيناي مُسمَّرتَيْن، وكأنهما مُنجذبتان مغناطيسيًا، إلى كارلوس فوينتس الجالس في الصف الأمامي. رأيته مستغرقًا في متابعة المسرحية، مركّزًا تركيزًا كاملًا، محلّقًا في عالم آخر. في جواره كانت زوجته سيلفيا، الجميلة مثل حورية البحر، تبدو مرتاحةً، مع ابتسامة غامضة تمتدّ على شفتيها. كبرياءُ الكاتب الذي لم يغادرني كلّيًا، جعلَني أتساءلُ كيف سيكون رأيهم في المسرحية. في الحقيقة خشيتُ أن أسقط من أعينهم، في حال لم تنل المسرحية إعجابهم. ثم قلت لنفسي: هذه أمور لا مفرّ منها، ثم ماذا سيتغيرّ مهما كان رأيهم؟!

فاجأتْني ضحكةٌ من الجمهور، إذ لم أتوقع منهم أيّ تفاعل، فصرفتُ انتباهي مباشرةً إلى الممثّلين. كانت حوّاءُ مستلقيةً على أريكة ملكيّة، ترتدي عباءةً سلطانيّة حمراء اللون، باهظة الفخامة، وتحملُ

Twitter: @ketab_n

بيدها دُميةً قطنيةً على شكل «ميكي ماوس». بدتْ وكأنها تنتظرُ أمرًا ما بفارغ الصبر، بينما يجلس مُهرِّجان تحت قدميها، ويعزفان على القيثارة. دخل الحاجبُ وقال لها: «السيّد آدم يعتذر عن الحضور، لأنه مشغول».

لماذا كل ذلك؟ أنا بالذات لم أفهم، إنه ضرب غريب من الدادائيّة، هل يُعقل أني من كتب ذلك؟... ذهبتْ حوّاء إلى المخبَر لتأتي به، فوافقَ آدمُ على شرب كوب من الشاي معها، لكنه لم يقبلْ بوضع المجهر العملاق من يده. وهو فعلًا مجهر مكبّر عملاق، يحملُه على كتفه بمشقّة كبيرة. تدريجيًا بدأتُ أتذكّر... نعم أنا من كتب هذا، بل أكثر من ذلك، كان الممثّلون يتقيّدون بالنصّ بدقة كبيرة، حرفًا حرفًا وفاصلةً فاصلة. راحتْ شكوكي بأني لستُ كاتب هذا النصّ تتلاشى، فهو يتضمّن ثيماتي المتكرّرة، وحِيَلي الصغيرة، وبعضَ الحوارات التي جرتْ معي في الواقع قبل أن أستخدمها في النصّ، وقد أعادني المشهدُ إلى جلسةِ شاي مع زوجتي في عصر يوم من أيام الصيف. لكنْ لماذا يشرب آدم وحوّاء الشاي بهذه الأكواب الضخمة؟ التي تبلغ سعةُ كلٍّ منها خمسة غالونات؟! في هذه النقطة، كان عليّ أن أتذكّر سيرورتي العقلية أثناء كتابة النص، فالتذكُّر هنا بمثابة إعادة البناء. النقطة المتعلّقة بحجم الأكواب، تعودُ إلى فرضيّةٍ تقول إنه في بداية العالم؛ لم يكن هناك توافقٌ حول أحجام الأشياء، فقد تطلَّب ذلك حقبةً زمنية طويلة من التطوّر. تبدو الحوارات التي أسمعُها الآن باللهجة الكاريبيّة غريبةً عني، خاصةً عندما أتصوَّر معناها ذهنيًا، لكنْ يجب الاعتراف بأنهم يتقيّدون بالنص حرفيًا.

كان في العرض المسرحي ابتكارٌ وحيد لم يوجدْ في النص المسرحي، وهو أن آدم كان زنجيًا. ربما لا يعتبر هذا ابتكارًا أو إبداعًا، لكنّ الممثلَ

Twitter: @ketab_n

البطل كان زنجيًا، وربما هو أفضلُ ممثّل لديهم، ولا يمكنهم تمييزه على أساس اللون، ففي فنزويلا يوجد الكثير من السُود، ولو أنهم أقلُّ نسبةً في جبال الأنديز، وأقلّ نسبةً أيضًا في الجامعات. ولذلك فإن من يصلُ إلى الجامعة منهم، هو شخص متفوق ومميّز، ولهذا ما كان عليّ أن أتفاجأ حين أعطَوه دور البطولة. ولأقول الحقيقة؛ ربما، بل على الأرجح، كنتُ الوحيد الذي لاحظ أنه أسود.

بالنسبة إلى المجهر العملاق الذي يحمله آدم على كتفه طوال المسرحية، فقد قامت الفرقة بعمل رائع حقًا، ولو أنهم لجؤوا إلى الحلّ الأبسط والأفقر خيالًا. المسرحيةُ بأكملها تتمحورُ حول هذا الجهاز، وكنتُ قد أوضحتُ في الهوامش أبعادَ الجهاز (6،5 × 5 × 3،5 قدم، أكثر بقليل أو أقلّ)، وأضفتُ أنه يجب أن يبدو كآلة بصرية علمية. أما الفكرة التي فهمها المسؤولُ عن الأدوات المستخدمة في العرض، فهي أن يصنع الجهاز الأكثر غرابةً في العالم، يبدو أنه لم يفهم قصدي تمامًا، لأنّ المجهر العملاق المستخدم في المسرحية يبدو مثل زجاج دوشامب[1]

كانت الحبكة المسرحية تتحلّلُ حدثًا تلو الآخر، وكنتُ قد بنيتُ الصراع الدراميّ على الاستحالة الغامضة المعشّشة في أعماق قلبِ كلٍّ من البطلين. إذ كان حبُّهما حقيقيًا، وفي الوقت نفسه مستحيلًا. آدم مشغول بتجاربه المخبرية، حوّاء تتبع نزواتها الفاجرة، وكلاهما يجيدان التمنّع والتملّص. ولهذا بدا حبُّهما مستحيلًا، استحالةً ميتافيزيقية أو فوق طبيعية، بينما كان في الواقع عاديًا جدًا ومبتذلًا. المشكلة الحقيقية هي أنّ آدم كان متزوّجًا.

---

(1) عمل فني للرسّام والنحّات الدادائي الفرنسي مارسيل دوشامب (1887-1968) محفوظ في متحف فيلاديلفيا. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

أعترف بأني لا أعرف كيف أحلُّ المعضلة الصعبة التي برزتْ في الجملة السابقة. لأنه لو كان آدم وحوّاء –مع احترامي لهما– الرجُلَ الوحيد والمرأة الوحيدة في العالم، فإنّ زوجة آدم –الزوجة الغائبة عن العرض، والتي يشكّل وجودُها عقبةً في طريق حبّه لحوّاء– لا يمكن أنْ تكون غير حوّاء نفسها. كانت فكرتي (وهي خاصّة بي، إلى درجة أني أراها تعبّرُ عن فهمي للأدب) هي خلْقُ شيء مُعادل لهذه التصوّرات، واقعيّ ومستحيل في آن، شيء مثل لوحات إيشر[1]. صورةٌ تبدو قابلةً للتطبيق في الرسم، لكنها غير قابلة للتطبيق في البناء، لأنها من خداع الرسم المنظوري. ومن الممكن فعلًا كتابة شيء كهذا، لكنْ على المرء أنْ يكون موهوبًا جدًا وشديد التركيز. وفي حالتي كنتُ متسرّعًا للانتهاء من كتابة النصّ، متدحرجًا نحو النهاية، متلهّفًا للارتياح والخلاص. ولذلك حافظتُ على توتّر المسرحية معتمدًا على قوة الغموض، والحوارات السريعة المضحكة.

بدأ الحدث الدرامي يتصاعد نحو لحظة الحسم، وذلك بعد الحوارات الغاضبة التي شهدتْها جلسةُ الشاي بين آدم وحوّاء. شعرتُ بخيبة هائلة هبطتْ عليّ مثل قنبلة ذرية عقلية، فمجدّدًا أجدُ نفسي مستسلمًا للا معقول، للابتكار العابث من أجل الابتكار وحده! مستخدمًا اللا متوقّع وكأنه نوع من التدخّل الإلهي المفاجئ. وللمرة الثانية أبدّدُ النصيحة القديمة التي تزيّن واجهة أخلاقي الأدبية: «بسِّطْ، يا بُنيّ، بسِّطْ». لكني كتبتُ أشياء مقبولةً بعد هذا المشهد، ربما بالصدفة، وربما بسبب تلك النصيحة. يا لهُ من إسفاف! فمن خلال «التبسيط» وحده، يمكنك تحقيق الاختلاف، وهو زهرة الأدب

(1) م. س. إيشر (1898–1972): رسّام هولندي معروف بلوحاته المبنيّة على حسابات هندسية، ومنها لوحة «النسبيّة» التي تظهر فيها سلالم متداخلة، تشكّل نهاية كل سلّم بداية لسلّم آخر، بحيث لا تعرف أيّ السلالم فوق الآخر. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

في رأيي. أما التعقيد فيشكّل حتمًا تناظراتٍ ذهنيةً ثقيلة، مرهقة ومبتذلة.

لكنّ هَوَسي بإضافة أشياء جديدة باستمرار: أحداث عارضة، شخصيات، فقرات، تحوّلات، تشعّبات... كان هَوَسًا قاتلًا. قد يعود ذلك إلى فقدان الثقة في النفس، أو الخوف من كون الأساسات غير كافية، ولهذا أظلُّ أضيف وأضيف زخارف وزخارف، حتى أصنع شيئًا من الروكوكو[1] السوريالي. وهذا ما يثير غضبي أنا، أكثر من كل الآخرين.

كان الأمر أشبه بالكابوس (الكابوس الأمّ الذي أنجب كلّ الكوابيس)، أنْ أشاهد أخطائي تتجسّد أمامي على خشبة المسرح. صحيح أن عقوبتي هذه أدبيّة النوع، لكن المسرحية بأكملها تخضعُ لمنطق الكوابيس وتمثّله. بدأ عقلُ آدم المسكين يتمرّد عليه، وفي لحظةِ انفجارِ غضبه، قام بقتل حوّاء.

كان مشهدُ القتل مليئًا بالتفاصيل المروّعة، فقد قطعَ رأسَها، ثم مثَّلَ به تمثيلًا شنيعًا. بعد ذلك قسَّم شعرَها الأشقر الطويل إلى خصلتين عريضتين، وربطهما حولَ خصر الجثة، التي تركها واقفةً على ساقيها. كانت الربطةُ المتشكّلة من خصلتي شَعرها معقودةً فوق أردافها، بينما ظلّ رأسُها يتدلّى أمام عضوها الجنسي. وكأنه نصفُ حمّالة صدر، مخصّصة للعضو السفلي.

هرب آدم حاملًا المجهرَ العملاق فوق كتفه، تدخّلتْ شرطةُ بابل في القضية، وقد صرّح المحقّق المسؤول: «نحن نتعامل مع قاتلٍ متسَلْسِل، ارتكبَ سلسلة جرائم بالطريقة ذاتها، وهذا توقيعُه، إنها الجريمة

(1) الروكوكو: أسلوب في التزيين الداخلي والديكور، يعتبر امتدادًا للباروك، لكنْ بمقاييس جمالية تتسم بالسلاسة والرقة. (المترجم).

Twitter: @ketab_n

السابعة بهذا الأسلوب، وكلّها وقعتْ على سيّدات ذوات شَعرٍ أشقر طويل. وكلُّهنّ عُلّقتْ رؤوسهنّ على خصورهنّ...». لكنّ آدم بالتحديد، كان الرجل الأوّل والوحيد على وجه الأرض، فلا يمكن أنْ يكون واحدًا ضمن مجموعةٍ من المُشْتَبَه بهم، إنه الطرفُ المذنب بالضرورة. وأكثر من ذلك، إذا كانت حوّاء هي المرأة الوحيدة في العالم، فكيف لها أن تكون واحدةً ضمن سلسلة من الضحايا؟!... القتلةُ المتسَلْسِلُون ظهروا فيما بعد، بعد قرونٍ من التطوّر والارتقاء. أنا شخصيًا لم أَفهم المسرحية.

في المشهد الأخير، يكون آدم جالسًا في الكهف الذي اختبأ فيه، فيظهرُ شبحُ حوّاء على عدسة المجهر العملاق كجزءٍ لا يتجزأ منها. بعد ذلك، تسرّبَ عملاء من دولة خارجية، مستغلّين هذه الظروف، لكي يسرقوا المجهر العملاق منه، دون أنْ يعرفوا أن حوّاء ما زالتْ حيّةً في داخله.

لقد كان العرضُ صادمًا ومثيرًا للاشمئزاز، وقد انتابني الشعور بالخزي والعار.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

(7)

ما حدث لا يصدّق، فقد أُعجبَ الحضورُ بهذا العرض التافه! وقد أفلَ العرضُ مع أفول شمس النهار. ومع آخر شعاع من الغروب، وصلتْ طائرة المساء إلى المطار. ففي كل يوم تصل طائرتان إلى «ميريدا»، وعليهما أنْ تهبطا خلال ساعات النهار، إذ تجدُ الطائرات صعوبةً بالغة أثناء الهبوط في هذا الوادي الضيّق المحاط بقمم الجبال السامقة. دخل ضجيجُ محركات الطائرة في موسيقى نهاية المسرحية، ثم نزل الركابُ حاملين حقائبهم الشخصية، دون أن يقاطعوا العرض أو يفسدوه. وقد استغرق هذا التفصيلُ نقاشًا مطوّلًا مع مدير المطار قبل العرض. لقد كان الجوّ احتفاليًا مهرجانيًا، وكان الجميع سعداء ما عداي أنا.

قررتُ أنْ أشربَ لكي أخرج من حالة الإحباط، فمنذ خضوعي لعلاج من الإدمان على الكحول قبل عشر سنوات، لم أضعْ قطرةً واحدة في فمي. وفي كل حال كنتُ حكيمًا في أغلب الأحيان، فلا أشربُ عدة أنواع في نفس الجلسة. لكنّ الرَّمَّ مشروب غدّار، لطيف جدًا، ومُريح كثيرًا، مثل علّة خالدة ليس لها معلولات. إلى أنْ تكشف المعلولاتُ عن ذاتها بذاتها، وعندها ستدركُ أنه كان لهذه العلّة تأثيراتٌ منذ البداية، حتى قبل أن تظهر على شكل معلولات. بعد انتهاء العرض، تلقيتُ التهاني والمباركات ببلاهة الأحمق المثالي، رأيتُ شفاهًا تتحرّك وابتسامات ترتسم، كما أنني حرّكتُ شفاهي أحيانًا، وشربتُ، وابتسمتُ كذلك،

Twitter: @ketab_n

حتى تعبتْ عضلاتُ وجهي من تصنّع الابتسامة لفترة طويلة. وبنفس هذه الابتسامة/التكشيرة، استقبلتُ كلمات كارلوس فوينتس.

ما حدث بعد ذلك، كان مغطّى بغمامة من السُّكْر. صعدنا إلى الحافلات التي نقلتنا إلى مطعم لتناول العشاء، ثم ذهبنا إلى البار لنتابع الشُرْب، وعند منتصف اللّيل أخذنا سيارات أجرة وتوجّهنا إلى الديسكو... وخلال كل الأماكن المتعددة التي ارتدتُها في هذه الليلة، كنتُ أشعر –تحت التأثير القويّ للرَّم- بقلق مستديم، وذلك لأنني لم أضعْ يدي على الجرح وأعالجه. لا أعرف ماذا كان يجري لي، لا يمكن أن يكون ذلك بسبب تغيير المكان، فأنا معتاد على السفر. وبالتفاتة سريعة إلى الماضي، أدركتُ ما الذي يجري... يحدث الآن: وأنا نصفُ واعٍ، انضممتُ إلى مجموعة من الشبّان، عُدنا معًا في الحافلة وجلسنا على طاولة عشاء واحدة، وقد بقيتُ برفقتهم طوال الوقت. كانوا مجموعة من الطلاب المتطوّعين (قالوا إن عملهم «لوجستي») في تنظيم المؤتمر الأدبي، وأغلبهم من الفتيات اللواتي لا تتجاوز أعمارهنَّ العشرين سنة. هؤلاء الشبّان المتطوّعون لم يكونوا جميعًا من هواة الأدب، وفي الحقيقة لم يفعل زملائي شيئًا لانتشالي من بينهم، على العكس، كانوا يتأكّدون من حقيقة السُمعة التي صنعتُها لنفسي، وهي أني أفضّلُ الحياة على الأدب. كان زملائي مقتنعين بأنني ألاحقُ الفتيات الشابات، وقد برهنتُ على صحّة ادّعائهم، وأثبتُّ لهم أنّ الأدب جزء من الحياة والهوى. وأثناء انشغال الطلاب بي، لم يطلبوا مني سوى أنْ أعيرهم بعضًا من اهتمامي. وفي الحقيقة فضّلتُ صُحبتهم على صحبة الأدباء الكبار الذين من المفترض أن أتفاعل معهم، وسررتُ بأنْ ألتقي بالناس في مكان عام، بصفتي بطل «خطّ ماكوتو».

Twitter: @ketab_n

سهرتُ الليلة بكاملها في الديسكو، حيث ترقص الأضواء المعلّقة بالسقف، وتصدح موسيقى السالسا الصاخبة. كان الديسكو مزدحمًا جدًا، تكاد لا تستطيع التحرك، لكني لم آبه لذلك، إذ كنتُ أحلّق في الطبقة العليا من الغلاف الجوّي. كان الشبّان الذين رافقتُهم بمثابة حرّاسي الشخصيّين، أما الانطباع الخاطئ الذي تشكّل لدى زملائي العقلاء، فيمكن النظرُ إليه من وجهة نظر مختلفة هذه المرة، ولو أنها لا تختلف في الجوهر عن وجهة النظر السابقة: مصُّ الدّماء!... إنّ رجَاحة عقلي الزائفة، والمُفتضَحَة الآن، لا يمكن رؤيتها إلاّ من هذا المنظور. لكنّ طريقتي في مصّ الدماء مميّزة، كما أزعم.

مصُّ الدماء هو مفتاح علاقتي بالآخرين، وهو الآلية الوحيدة التي أتفاعل من خلالها. بالطبع هذا مجاز، فمصّاصو الدماء غير موجودين، إنهم مجرّد شمّاعة نعلّق عليها كل ضُروب التطفّل المعيب، وتحتاج إلى مجاز لكي تتفاهم مع ذاتها. الشكلُ الذي يأخذه هذا المجاز في داخلي هو المميز، كما أسلفت. أمّا ما أحتاجُ إليه -ما أمتصُّه- من الآخرين، فلم يكن المال، ولا الأمان ولا الإعجاب، ولا -بمصطلحات المهنة- مواضيع القصص. إنه... إنه... إنه الأسلوب! لقد اكتشفتُ أنّ كل كائن بشريّ، كل كائن حيّ في الواقع، بالإضافة إلى ما يملكُه من ماديّات وروحانيّات، لديه أسلوب خاصّ يُدير به هذه الملَكات. وقد تعلّمتُ أنْ أكتشف هذا الأسلوب، وأسرقه منه، وهذه هي الثمار الهامة التي جنيتُها من علاقاتي، على الأقلّ العلاقات التي أقمتُها بعد الأربعين. تتميز علاقاتي بكونها مؤقتة، لها بداية ونهاية، وعابرة بكل معنى الكلمة. وقد صارت عابرةً أكثر فأكثر مع ازدياد مهاراتي في القبض على الأسلوب الشخصي للآخر، وانتزاعه. وفي الوقت نفسه أتحاشى أيَّ نوع آخر من مصّ الدماء، لأنه سيقود إلى علاقة دائمة،

Twitter: @ketab_n

فعلى سبيل المثال: لو كنتُ أنتزعُ المال أو الاهتمام من ضحيّتي، فإنّ مدخراتها -في هذه الحالة- ستكون غير محدودة. ولو كنتُ أبحث عن مواضيع القصص، فإن موضوعًا واحدًا سيملأ مخيّلتي إلى أجلٍ غير مسمّى. أمّا الأسلوبُ فهو مختلفٌ، لأنّ لهُ آليةً تجعلُه مبتذَلًا حين ينتقل من شخص إلى آخر. وأثناء عملية الاقتناص، وعندما أرى دماءَ ضحيّتي تجفّ، وأرى الضحيّة تذوي وتفرُغ من محتواها، أفقدُ كلّ اهتمامي بها، فأنتقل إلى ضحية أخرى.

ها قد كشفتُ الآن عن السرّ الكامن وراء أنشطتي العلمية. فأنا لا أقصدُ باستنساخ الخلايا المشهورة، سوى مضاعفة خلايا الأسلوب. وهذا ما سيقودني إلى إشباع شهيّتي للأساليب. أعتقد أن الحاجة أمُّ الاختراع، وسبق أن بحثتُ عن طريقةٍ لإشباع حاجتي، من خلال الحبّ، نعم الحبّ، دون أي نجاح يُذكر إلى حد الآن.

كنّا مجتمعين على مقعدٍ موازٍ للجدار، وبُقربي، لتبادلني الحديثَ أحيانًا، جلسَتْ نيللي. كانت نيللي إحدى صديقاتي الفنزويليّات الشابّات، خريجة كلية الآداب. وكنتُ معجبًا بها حقًا، ولديَّ انجذاب كبير نحوها، انجذابٌ فيه نوع من الحسَد العابر للحواجز بين الجنسين. لقد كان عمرُها -على الأرجح- واحدًا وعشرين عامًا أو اثنين وعشرين، لكنها كانت تجسيدًا مثاليًا للشباب الدائم. فهي نحيلة الجسم، بريئة الملامح بشكلٍ استثنائي، ولها عينان واسعتان وهَيْبةٌ أرستقراطية. كانت ملابُسها -سروال قصير وصدريّة بلا أكمام- مصنوعةً من الساتان البنيّ، وقد كان نهداها العظيمان مكشوفَين تقريبًا، وكانت تلبس خفّين آسيويين مدبّبي الرأس في قدميها. بينما ينسابُ شعرها الأشقرُ المجعد على كتفيها، بزاوية مائلة، مغطّيًا عينها اليسرى فقط. جزءٌ من سحرها يعود إلى تبايُن مكوّناتها الوراثية،

Twitter: @ketab_n

فقد كانت خلاسيّة، مختلطةً ربما بدم أبناء البلد، لكنّ وجهها فرنسيّ الملامح. كان لون شَعرها مستحدَثًا، حسب التعليقات التي سمعتُها من أصدقائها، وأذكرُ أنها كانت حمراء الشعر حين التقيتُها قبل سنوات. في الديسكو، كانتْ هادئة مرتاحة، تحملُ قدحًا من الرَّم في يدها، بينما تستغرق عيناها الساحرتان في التأمّل. لا يمكن للمرء أنْ يخمّن بماذا تفكّر، بدتْ وكأنها تسرحُ في عالم آخر. تتكلّمُ نيللي فقط عندما يتحدّثُ إليها أحد، وبقية الوقت، تتركُ الصمتَ الوثير يغطّيها ويحميها. كان كلامها همسًا، لكنها تجيدُ تقطيع الكلمات بشكلٍ متقن، حيث أني أستطيعُ فهمها تمامًا، على الرغم من صوت الموسيقى الصاخبة.

«تبدينَ فاتنةً هذه الليلة يا نيللي»، قلتُ لها بلساني المُثقَل بفعل الكحول، كان يجب أن أضيف: «كالعادة»، أو ربما قلتُ ذلك فعلًا؟ كلُّ جملة أنبسُ بها تخرج من فمي مرتين، أو أحسُّ بها مرتين، فهي تحمل معناها الأصليّ أولًا، وما قصدتُه بها ثانيًا.

لدقيقة بدتْ أنها لم تسمعني، وعلى كل حالٍ هذا هو ردُّ فعلها الاعتيادي. في ذلك الحيّز الضيّق الفاصل بين جسدينا، التفتتْ إليّ مثل إلهة تلتفتُ إلى شعبها من محراب المعبد: «لبستُ أجمل ما عندي، من أجلكَ خصيصًا، فاليوم يومك يا سيزار».

«شكرًا جزيلًا، أنا مستمتعٌ بيومي، وأنتِ دائمًا جميلة وأنيقة، هذا جزء منك».

«من اللطف أن تقول ذلك، أنت جميل من الداخل ومن الخارج يا سيزار». لابدّ أن ملامح وجهي قد فضحتْ ذهولي، وأفشَت ارتباكي حينما قالتْ ذلك. ولهذا أضافتْ: «أنت شابّ، ووسيم».

كانت أضواء الديسكو منخفضة نائسة، أي كنّا في الظلمة تقريبًا.

Twitter: @ketab_n

أو بالأحرى سمحتْ لنا الأضواء الراقصة الملوّنة بأنْ نرى ما يحدث أمامنا، لكنْ دون أنْ نستطيع تشكيلَ المشهد في أذهاننا. هذا هو الاختراع الألمعيُّ المسمّى الأضواء الليلية، نظامُ إضاءة يتوالد من نفسه، يتأرجحُ بين الوجود والعدم، في سيرورة يساندُها الكحول والصخب. ومن أعماق هذا العدم، نهضَتْ -دافئةً وذهبيّةً، مثل حوريّة قادمة من الفردوس- نيللي الجميلة. أرخيتُ ذراعيَّ حول خصرها الناريّ، وقبّلتُها. كان لشفتيها طعمٌ حارقٌ وملْمَسُ الحرير. كنا قريبَيْن من بعضنا جدًا، وبعد قليل سيصبحُ واحدٌ منا فوق الآخر. كنا متلاصقَين حتى أنّ نظراتنا المتبادلة، لا تتطلّبُ منا أي تحريك للعين، أو ربما ثمةَ حركةٌ لا تدركها الحواس.

«لم أعُدْ شابًا، ألم تلاحظي كم فقدتُ من الشَعر منذ زيارتي الأخيرة؟»

نظرَتْ إلى شَعري، وهزّتْ رأسَها. أصررتُ على فتح الموضوع بعناد السكران، أخبرتُها أنّ صلَعي الوشيك يرعبني، وأنّ الأمر لا يتعلّق بغروري بنفسي فحسب، بل ثمة سببٌ واقعيّ راسخٌ وراء ذلك. أخبرتُها أنني حينما كنتُ يافعًا، حلقتُ شعري كلّه في نزوة جنونية، ثم وشَمْتُ عبارةً على فروة رأسي، سرعان ما غطّاها شعري بعد أنْ نما من جديد. وفي حال أصبتُ بالصلع، وانكشفتْ هذه الكتابة، سيكون ذلك نهاية البرستيج الأنيق، البرستيج الذي شيَّدتُهُ كدرعٍ دفاعيّ هشٍّ من حولي.

«لماذا؟ ماذا تقول العبارة؟»، سألتْني مُدّعيةً أنها قد صدّقتْني.

«يمكنني القولُ فقط، إنها بمثابة تصريح... عن إيماني بوجود الكائنات الفضائية».

ضوءٌ بنفسجيّ انسكبَ للحظاتٍ عابرةٍ فوق وجهها الأسمر، وأراني

Twitter: @ketab_n

ابتسامتها الرزينة. ولهذا تابعتُ الشرح لها، وقلتُ إني أنفقتُ ثروةً ماليّة على الشامبو المغذّي للأوعية الشَعْرية، ونتيجةً لذلك فقدتُ ثقتي في المنتجات الكيميائية، وللسبب عينه سخّرتُ حياتي للكيمياء.

بعد قليل، محاولاً تغيير الموضوع، سألتُها عن الخاتم الذي تضعُه في يدها اليسرى. فقد كان قطعةً خلّابة من المجوهرات، مُصَاغًا على شكل تاج، مع لؤلؤة كبيرة مصقولة السطوح. قالتْ إنه خاتم التخرُّج، إحدى التقاليد المتّبعة في الجامعة، لكنّ خاتمها ذو مزايا فريدة، فهو خاتم بقيمة خاتمين، تكريمًا لها، لأنها نالتْ شهادتين جامعيين في نفس الوقت. إذ تخرّجتْ من الجامعة مُجازةً في الآداب، ومُجازةً في تدريس الأدب. من الواضح أنه تمييز دقيق واحترافي، ومن الواضح كم كانتْ فخورةً بإنجازها المزدوج.

سحبتْ يدَها الحريرية من بين يديّ المهترئتين بسبب الحمض النووي الذي أستعملُه في تجاربي، ورفعتْها قُبالة عينيَّ بحيث يمكنني تفحُّص الخاتم، وقد كان فعلًا تحفةً فنيّةً من حيث ذكاء التصميم، ومهارة اليد الصانعة. بين الفينة والأخرى، يعبرُ شعاع من الأضواء المتحركة فوقنا، فينيرُ الجدران المبنية بالحجر الأزرق، والنوافذ ذات الزجاج المزخرف، وأرى شبّانًا يرقصون.

«انظُرْ»، قالتْ لي وهي تُدير الخاتم على إصبعها بواسطة إصبعين من يدها الأخرى، «هل ترى الكلمتين المنقوشتين هنا؟ إنهما تُقرآن في الاتجاهين، بحيثُ تشيران إلى الشهادتين الجامعيتين اللتين حصلتُ عليهما معًا». لم أستطع رؤية شيء، بسبب ضعف الإنارة وتشوّش ذهني في تلك الساعة المتأخرة. لكنّ الفكرة أعجبتني، ولذلك قبّلتُ أصابعها.

سامحني يا ربي، فقد بدأتُ أشكُّ في جدّية المقرّرات التعليميّة في

Twitter: @ketab_n

الجامعات الاستوائية. كلُّ هذه القُبلات والملاطفات التي أراها أمامي في الديسكو، تشكّل نصًّا أدبيًا مبتذلًا، أتّخذُه دليلاً حقيقيًّا على ذكاء نيللي الفريد. لأنّ كل حركاتي الإغوائية، الجريئة منها والبريئة، الشهوانية منها والعفيفة، خرجتْ كلُّها من نفس الكواليس: تقديري الشديد لذكاء المرأة (المرأة التي نتحدّث عنها تحديدًا). لا أستطيعُ سوى الإعجاب بهذا الذكاء، على الرغم من الصورة التي رسمها خيالي أيام المراهقة، وما زالتْ تتردّد في ذهني إلى اليوم، عن رغبتي في امتلاك عبدة جنسية، امرأة تستسلم لي دون أيّ تحفّظ، وتطيع رغباتي المَجنونة. لا بدَّ أنّ ذكاء نيللي كبير الكميّة وفريدُ النوعية، وهو غامضٌ أيضًا، يهزمُ أفضل مهاراتي الكلاميّة، يهربُ من مراوغاتي، ويبقى لغزًا مستحيل الحلّ.

كنتُ معجبًا بـ نيللي لسبب آخر، وهو أيضًا إيجابيّ وبالغ السموّ. إنّها صديقة أميلينا المفضّلة،وبئرُ أسرارها، وتعرفُ كل شيء عنها... ومن ضمن الأشياء التي تعرفها، تعرفُ أين تختبئ. كانت نيللي حافظةً للسرّ، متكتمة عليه، مخلصةً لصداقتها معها، ومعي أيضًا. لم تكن المرأتانُ متطابقتي الصفات تمامًا، بل يمكن القول إنهما متناقضتان. ذاتَ مرة قارنتُ بينهما، على سبيل المزاح، فوصفتُهما بالشمس والقمر. هنا في الديسكو، في حالة السُكْر اللذيذ، أملكُ بجواري الحقيقةَ كاملةً ونابضة،الحقيقةَ التي تلامسُ كل الحقائق الأخرى، وتنتشرُ من خلالها حتى تطوّق العالم بأكمله. عينا نيللي الحالمتان، ضاعتا في أعماق الليل وفي أعماقي.

Twitter: @ketab_n

(8)

في الفجر، تظهر الأشياء على حقيقتها، واضحةً كقطرة ماء. أكثرُ عناصر الوجود بساطةً وتفاهةً، ترتدي ثوب الحقيقة، ما يجعلني أرتجف بألم. هذه حزمةٌ من الأعشاب، وذاك حجر الرصيف، وتلك قصاصةُ قماش، كل شيء كان واقعيًا وكثيفًا. كنا في ساحة «بلازا بوليفار» المورقة الخصبة، وكأنها غابةٌ بكر. اتّشحَت السماء بالزُرقة الصافية، لم تكنْ فيها ولا غيمة واحدة، لا نجمة ولا طائرة، وكأنّ سكّانها قد هجروها. ينبغي على الشمس أنْ تبزغ الآن من خلف الجبال، لكنّ أشعتها لم تلامس بعدُ، حتى أعلى قمة جبليّة في الغرب. اشتدّ الضوءُ قليلًا، ولم تكن للأجساد أيُّ ظلال. راحت الأضواء والأخيلة تطفو فوق بعضها على طبقات. لم تبدأ الطيور بالتغريد بعدُ، وفي الغالب ما زالت الحشراتُ نائمة. كانت الأشجارُ جامدةً في مكانها، وكأنها أشجارٌ في لوحة تشكيلية. وعند قدمي، تابعت الحقيقةُ ولادتها من ذاتها، مثل كائن لا عضويّ يولدُ ذرّة تلو ذرّة.

الغرابةُ التي جعلتْ كلَّ شيء يتلألأ، جاءتْ مني. العوالمُ تخرج من حيرتي التي لا قرارَ لها.

«إذن، هل أنا قادر على الحبّ؟»، سألتُ نفسي، «هل يمكنني حقًا أنْ أحبّ بصدق؟ مثلما يحدث في المسلسلات الدرامية، مثلما يحدث في الواقع؟». هذا السؤال يتجاوز قدرتي على التصوّر. حبّ؟ أنا أحبّ؟ أنا رجُل العقل، المولَعُ بجماليّات الفكر؟ ألا ينبغي أنْ يحدث شيءٌ حتى

Twitter: @ketab_n

يجعل ذلك ممكنًا؟ إشارةٌ كونيّة ما، حدثٌ يقلِب سيرورة الأحداث، كُسوفٌ لأحد الكواكب؟

على بعد إنشات من قدميّ، كانت إحدى ذرّات الفجر تتبلوَرُ في لهيب شفاف، تبعثُها ذرّة أخرى، ثم... هل يمكنني العشقُ بهذه الطريقة، دون أنْ ينقلب الكون رأسًا على عقب؟ إنّ الشرط الدائم الذي يجعلُ الواقع حقيقيًا هو التلاحم، هو أنّ الأشياء تتجاورُ مع أشياء أخرى... في خطوط أو مستويات... لا، هذا مستحيل، لا يمكنني تصديقه. فجأة! أمام وجهي تمامًا، بدأتْ ذرّةٌ أخرى طيرانها اللولبيّ نحو الاحتراق الشفاف. لو كانتْ كلُّ المعلولات تعود إلى علّةٍ واحدة، فهذا يعني أن آدم وحوّاء كانا حقيقيين!

كنا أنا ونيللي جالسين على مقعد حجري تحت الأشجار، شاحبَين مثل صفحة بيضاء. كانت ملامحي غارقةً مثل وجه رجل عجوز، باهت، جافّ من الدماء، وكان شَعري مبعثرًا في شتى الاتجاهات. عرفتُ ذلك لأني كنتُ أرقبُ انعكاسَ وجهي على زجاج المجهر العملاق الذي أمامنا، فقد حملَهُ ممثّلو فرقة المسرح الجامعي معهم إلى الديسكو، وفي آخر السهرة، قدّموه لي كمُربون شكرٍ وتقدير. كنا نرقصُ حوله مثل البشر البدائيين المحتفلين بسقوط المطر، ونشاهد انعكاس وجوهنا عليه، مكبَّرةً ومصفَّرة، وأحيانًا بالمقلوب. بعد ذلك غادر الشبابُ الديسكو سكارى، وكان عليّ أن أبذل جهدًا حتى حملته وحدي إلى الساحة، وجلستُ أنتظر، لأنهم عاجلًا أم آجلًا سوف يتذكّرونه، ويأتون لأخذه، فهم ما زالوا في حاجةٍ إليه من أجل يوم الافتتاح الرسمي للمسرحية.

كان الفجرُ بكامله منعكسًا على عدسة المجهر العملاق، وفي هدأة الفجر، كنا أنا ونيللي فقط، وكأننا الناجيان الوحيدان بعد نهاية العالم. بعد جهد جهيد استطعتُ رفع عينيّ عن عدسة الجهاز، فنظرتُ

Twitter: @ketab_n

مباشرةً إلى نيللي، ولا أعرف لماذا سألتُها سؤالًا غبيًا: «فيمَ تفكّرين؟»

ظلّتْ صامتة لم تجبْ، لكنها متأهّبة للإجابة، ثم ضاعتْ عيناها في الفراغ.

«هل تسمعُ ذلك يا سيزار؟ ما الذي يحدث؟»

كان بإمكاني أنْ أقسم لها بأنّ الصمتَ مُطبق، بالإضافة إلى كوني أجنبيًا في هذا البلد، ولستُ قادرًا على تحديد ما هو عادي، وما هو غير عادي، في قلب هذا الصمت. وعلى كل حال، لم يكن الصمتُ هو ما يربكُ نيللي ويقلقها. استيقظتُ فجأةً من أحلام اليقظة، سمعتُ صيحات الاستغاثة، أصوات سيارات تسير بسرعة، صافرات الإنذار، كلُّ ذلكَ شكّل دوّيًا مُبهمًا يتذبذبُ في الهواء. إلاّ أنّه لم يزعجِ السكون في مركز المدينة إلى حدّ الآن، وكأننا في عالم آخر، لكنه يقتربُ منا رويدًا.

«توقّفت العصافيرُ عن الغناء»، همستْ نيللي، «حتى الذبابُ ذهبَ ليختبئ بعيدًا».

«هل ممكنٌ أنْ يكون ذلك زلزالًا؟»، جازفتُ بالقول.

«ممكن»، أجابتْ بصوتٍ ملتبِس.

عبرَتْ سيارةٌ بأقصى سرعتها من أمام الساحة، مرّتْ خلفها شاحنةٌ عسكرية محمّلة بالجنود، أحدُهم رآنا فصاح قائلًا شيئًا، لكنهم كانوا مسرعين جدًا، فلم نفهمْ حرفًا مما قال.

«انظُرْ»، صرخَتْ نيللي وهي تشيرُ بإصبعها إلى الأعلى.

نظرتُ إلى الأعلى، فرأيتُ حشدًا من الناس على سطوح الأبنية، جميعُهم يحدّقون إلى البعيد ويصرخون. المشهد نفسُه كان يجري على شرفات الأبنية المحيطة بالساحة. أمامنا تمامًا، بدأتْ نواقيسُ الكاتدرائية تُقرع. وخلال رفّة عين، راحت الشوارع تغصُّ بالسيارات

Twitter: @ketab_n

التي تحمل عائلات بأكملها... تبدو كأنها حالةٌ من الجنون الجمعيّ. صحيح أنني كنتُ قلقًا، لكنّ قد يكون الأمرُ طبيعيًا، فأنا لا أعرفُ عادات هذه المدينة، ولا شيء يستبعدُ أنّ يكون هذا هو ما يحدث في فجر كل يوم أحد: يخرجُ السكّان إلى الشرفات وأسطح البنايات ليكتشفوا حالة الطقس، وربما يصرخون ابتهاجًا لأنه يوم جميلٌ ومناسبٌ للنزهات وممارسة الرياضة. نواقيسُ الكاتدرائية، بدورها، تدعو المؤمنين إلى قدّاس الصباح. عائلاتٌ بأكملها تغادرُ مسرعةً إلى التنزُّه... لو لم أكنْ مع نيللي، لحسبتُ أنّ هذا هو روتينُ يوم الأحد المعتاد. لكنها كانت متوترة جدًا، ومذعورةً أيضًا.

كان واضحًا أنّ ما يحدث، يحدث بعيدًا جدًا عن هنا. والبعيدُ جدًا في هذا الوادي الضيّق المغلَق، يعني الجبال المحيطة به. لم نكنْ نرى الجبال من مكان وقوفنا في الساحة، لكننا رأينا صورًا بانوراميّة للشوارع المجاورة لنا، وهي الشوارع الأكثر جذبًا للسياح في العادة. وقفتُ على قدميّ، نهضتْ نيللي أيضًا، لا بدّ أنها فكّرتْ مثلما فكّرت، علينا أن نبحث عن النقطة الأقرب، النقطة التي نستطيعُ منها معرفة ما يحدث.

«دعنا نذهبْ إلى شارع همبولت المُقنْطَر»، قالتْها بعد أن بدأت المسير. كنتُ أعرفُ الطريق المقنْطَر جيدًا، فهو يبعد قرابة مائة ياردة عنا، وينتهي بطريق مدرّج شاهق الارتفاع، يمكنك رؤية نصف الوادي منه. سرتُ خلف نيللي، ثم أمسكتُ بيدها وأوقفتُها:

«هل نتركُ الوحش هنا؟»، سألتُها وأنا أشيرُ إلى المجهر العملاق.

هزّتْ كتفيها بلا مبالاة. تركنا المجهرَ العملاق في الساحة، ومضينا مسرعَين. وخلال المدة القصيرة التي استغرقها وصولُنا إلى الطريق المقنطر، ازدادت الحركةُ في الشوارع بشكل كبير، ولم نستطع المرورَ

Twitter: @ketab_n

وسط الزحام إلاّ بمشقّة كبرى. كان الجميعُ في حالة توتر شديد، بعضهم مذعورون، وأغلبهم يركضون حولنا وكأنّ الركضَ سينقذ حياتهم. جميعُهم يتكلّمون، لكني لم أستطعْ فهم كلمة واحدة، وكأنهم يتحدثون بلغاتٍ أجنبية، وهذا حتمًا من الأعراض الطبيعية لحالة الهَلَع.

عندما وصلنا، شاهدنا ما يحدث فعلًا، لقد كان منظرًا صادمًا صاعقًا، تطلّب مني بضع دقائق حتى استوعبتُه. لنبدأ؛ سأقول أولًا إنّ صافرات الإنذار كانت مبرَّرة وضرورية، ولأكمل القول؛ لا أعرفُ كيف أصف ما أرى... يمكنك القولُ إنه يوم القيامة...

ما زلنا في ساعات الفجر، لم تشرق الشمس بعدُ. كانت السماءُ صافية ونقية تمامًا، ولم تكن للأجساد أيُّ ظِلال... و... ديدانٌ عملاقةٌ زرقاءُ تتحدرُ ببطء من أعالي الجبال... أعرفُ أنّ وصفها يتطلّب تشغيلًا هندسيًا للدماغ، لكنْ ليس لديّ خيارٌ آخر. وقد أبدو وكأنني أقحمتُ خيطًا غريبًا في حبكة القصة، استعرتُه من أحد أفلام الخيال العلمي الرديئة. لكنْ في كلّ حال: إنها كائناتٌ حيّة، هذا متأكّد منه، فلديَّ خبرةٌ طويلة في التلاعب بأشكال الحياة المختلفة، ولا يمكن أنْ أقع في خطأ كهذا. فمِنَ الواضح أنّ حركتها عضوية، ولا يمكن لأيّ آلة محاكاتُها. حسَبْتُ حجم الديدان: كانت تقريبًا بطُول ألف قدم، وبقُطْر قدرُه سبعونَ قدمًا. إذ كان شكلُها إسطوانيًا تمامًا، دون رؤوس أو أذيال. يمكنُ تصوُّر شكلها الهندسيّ ذهنيًا، رغمَ أنها كانتْ تلتفُّ وتتثنّى وتغيّرُ شكلَها أثناء سيرها في الأراضي الجبليّة الوعرة. كما أنها تبدو طريةً ولزجة، لكنّ وزنها الجبّار لا ريب فيه، يمكنكَ الاستدلالُ عليه حين تراها وهي تزيحُ الصخور الهائلة من أمامها، وتشقُّ طريقها في خاصرة الجبل، محولةً الأشجار الضخمة إلى فُتات. أما أكثرُ ما هو

Twitter: @ketab_n

استثنائيٌّ فيها، وما يستحقُّ الإعجاب حقًا، فبفضْله لم تُضف الظروفُ مسحةَ رعبٍ أخرى على المشهد؛ هو لونُ الديدانَ. لونُها أزرقٌ برّاق، ذو وميض مشعّ، مثل بحر مُضاء أو مثل سماء غامقة، أزرق مُبلَّل باللَّمَعَان.

أمسكتْ نيللي بذراعي وحضنَتْها، كانت مرتعبة جدًا. أجلتُ عينيّ في محيط الهَرَم المدرَّج الأنديزيّ الكبير، فرأيتُ مئات الديدان، كلّها تتدحرج في اتجاه المدينة. من خلال صرخات الناس التي بدأتُ أفهمها، عرفتُ أن الأمر ذاته يحدث على الجبال التي خلفنا. سبقَ أنْ قلتُ إنّ «ميريدا» محاطةٌ بالجبال من جميع الجهات، هذا يعني أننا محاصَرون تمامًا، وبعد قليل ستسحقُنا هذه الوحوش. كانت الانهياراتُ الجبلية التي تسبّبتْ بها كارثيةً، إذ كان الوادي يهتزّ بأكمله، بينما تتساقطُ صخور بحجم البيوت، وتتدحرجُ صوب المنحدر. ربمّا بدأ الدمارُ الشامل يفتك بضواحي المدينة. حسابٌ بسيط سريع، يكشفُ أنّ مصير المدينة هو الهلاك. اثنتان أو ثلاث من هذه الديدان تكفي لكيلا يبقى حجرٌ فوق حجر، فما بالُك بالمئات منها؟! والأسوأ من ذلك، هو أنني في حالة من الرُعب واليأس، أدركتُ أنّ كميَّتها غيرُ محدودة... بل إنها تتزايد، وكأنها تتكاثرُ باستمرار، ولا يبدو أن هذه العمليّة ستتوقف.

الديدانُ التي كانت أمامنا، كانت في منتصف طريقها بين قمم الجبال وقعر الوادي. وقد كانتْ تزحفُ نحو الوادي، لأنّ تكاثرهاَ بأضعاف في الأعلى، يجبرُها على التدحرج نحو الأسفل. يمكنكَ القولُ إنه قدرٌ ميكانيكيّ، ولا توجدُ نزعةٌ إجرامية في ذهن هذه الوحوش الغريبة. وبغضّ النظر إنْ كانت حسَنَة النيّة أم سيّئة النية، فقد كان حجمُها كافيًا لتدمير كل شيء. لو كان لأحدٍ أنْ يحلمَ بمخرج من هذه

Twitter: @ketab_n

الكارثة، لقال إنّ حجمها خدعة بصرية، وإنها ستبدو أصغرَ حين تقترب، حتى تصبح في النهاية مسالمةً ووديعة، مثل أعقاب سجائر نهرسُها تحت نعالنا. لكنّ الديدان دحضتْ هذه الفرضية، فهي حقيقية جدًا، وعليكَ أن تنتظر اقترابها منكَ حتى تتأكد من ذلك، ولآخر مرة في حياتك.

آخر الآمال المتعلّقة بنسبيّة حجمها، تبدّدتْ بشكل فظيع خلال دقائق، إذ كنا شهودًا على المصيبة التي وقعتْ من مكان وقوفنا. عددٌ من الشاحنات العسكرية التي رأيناها تعبر أمام ساحة «بلازا بوليفار» وغيرها، راحتْ تتجمّع في طريق صاعد في اتجاه الديدان، ثم توقفتْ أمام الدودة الأقرب إلى المدينة. نزل الجنودُ وانتشروا أمام الكتل الزرقاء، وفي هذه اللحظة لم نستطعْ إنكارَ ما نرى: بدا الرجالُ في حجم الحشرات مقارنةً مع تلك الوحوش، عاجزين بشكل مثير للشفقة. راَحوا يطلقون النارَ عليها من بنادقهم الرشاشة، ولم يخطئوا إصابة الهدف إطلاقًا (كان الأمرُ أشبه بالتصويب على الجبل بأكمله)، لكنّ الديدان تابعتْ سيرها نحو الخلود دون أيّ تأثّر. لقد اختفتِ الرصاصاتُ في أطنانِ اللحم الأزرق الطرية، مثل حصىً ترميها على البحر. ثم جرّبوا استخدام مدافع «البازوكا»، الرشاشات الثقيلة، القنابل اليدوية، حتى الصواريخ المضادّة للطائرات التي أُطلقتْ من على ظهر إحدى الشاحنات، وكلُّ ذلك كان عبثيًّا وعقيمًا ومثيرًا للسخرية. كانت ذروةُ المشهد عندما انزلقتْ إحدى الديدان -خلال سيرها الأعمى- في منحدر شاهق، وتدحرجَ قسمٌ من جسدها على الطريق، محطّمًا الشاحنات والجنود مثل مِرْقاقِ عجينٍ عملاق، محوّلًا كلَّ ما في طريقه إلى صفائح رقيقة.

هرب الناجون في حالة فزع رهيب، بينما كسَرت الجماهيرُ

Twitter: @ketab_n

الشاهدةُ صمتَها المشدوه، بعد ما رأته من أحداث متسارعة، فراحتْ تصرخُ وتلُوب وتستغيث. إنّ أكثر ما كانوا يخشونه، قد تأكّدتْ حقيقته. أشار أحدُهم إلى موقع آخر، في جهة أخرى، حيث كانت تقع كارثة أخرى. كان ذلك على الطريق العام الذي يشطرُ الهضبة ويصعد من الوادي، فقد سقطتْ إحدى الديدان على خطّ مزدحم من السيارات التي تحاولُ الهرب، متسبّبة بعدد لا يُحصى من الضحايا. توقفّتْ حركة السير تمامًا، وخرج الناسُ من سياراتهم، وراحوا يركضون بين الصخور والأحراج عائدين إلى المدينة. لم يكن هنالك أيّ مهرب، كان الأمر محسومًا. تجوّلت الأعينُ المسكونةُ بالخوف حول الأبنية القديمة وسط المدينة، يبدو أنّ المدينة نفسها قد صارت الملاذ الأخير المُحتَمل. وكان من الوهم أن تفكّر أنّ هذه الجدران الواهنة، تستطيعُ الصمود أمام أوزان الديدان الهائلة.

عاد الناس مشغولين بأنفسهم، وكأنهم يحاولون معرفة ما يحدث من خلال ردودِ أفعال كلّ واحد منهم. أنا أيضًا كنتُ جزءًا من هذا الارتكاس، مثل كثير من الآخرين، مثل كل واحد ربما. لطالما حسبتُ أنني في الكوارث الجمعيّة الحقيقية، سوف أجدُ كنز أحلامي، آخذُه وأشكّله على هواي، وبعدها سيكون كلُّ شيء لي. خُذْ حدثًا هائلًا وواسع الانتشار، مثل الزلازل، أو تصادم الكواكب، أو الحرب. أي شيء يجعل الأجواء موضوعيّة بشكل كامل وأصيل. ووسط هذه الموضوعيّة أبني غرفةً لذاتي، لأناي، وأُحكِمُ السيطرة على كل شيء.

لكن حتى في قمة الموضوعية، لا بدّ أن تظهر الذواتُ بشكل جليّ. والأمثلة التي أعرفها عن الكوارث الطبيعية، لا تتضمن غزوًا من قِبل كائنات عملاقة لزجة. فهذا لا يحدث في الحياة الواقعية، إنه لا يخطر إلا في مخيّلةٍ مريضة.

Twitter: @ketab_n

في مكان ما، على قمة أحد الجبال، تقع الدوّامة التي تخرجُ منها قطعانُ الديدان الزرقاء الهائلة. تخرجُ من هناك إلى النور، وتبدأ بالانزلاق -حتى قبل أنْ تصبح في مجال رؤية- على طول الأفق المكسَّر بالرؤوس الجبلية. كان عددها كبيرًا، وتكاثرُها مستمرًا، وجميعُها تنحدر دفعةً واحدةً من كافة النقاط الواقعة على محيط الدائرة. أستطيعُ أن أحدّد بدقة نقطة انطلاقها، وأنا الشخص الأوحد الذي يستطيع ذلك: إنها تتوالد من آلة الاستنساخ. لا يمكنني تصوُّر غير ذلك، فالسنواتُ التي خصّصتُ وقتي فيها كاملًا، للتلاعب بالمواد المستنسخة، صقلَتْ حاسّتي السادسة وشذّبتْها. أنا أعرفُ ما أقول، فهذه الديدان تمتلكُ الخاصيّة المميزة: العدد المُفرِط. من أين يجيءُ هذا العدد إذا لم يكنْ من المضاعفة المجنونة للخلايا التي لا تقدر على إنتاجها سوى آلة الاستنساخ؟ فالكائناتُ الوظيفية تتكاثر بأعداد محدودة، لا يمكن تجاوزها. كان تفسيري الأول هو أنّ الآلة لا تعمل بشكل جيد، حتى صارتْ خارج السيطرة. ثم صحّحتُ خطئي فورًا، فهذا التفسيرُ يناسبُ عقلَ مواطن في مجتمع استهلاكي، يشتري مايكرويف أو كاميرا فيديو ويكون مذهولًا بتعقيدها. وهذا لا ينطبق عليّ، فأنا من اخترع آلة الاستنساخ، ولا أحد يعرف أكثر مني كم أنا عقلانيّ ومعصومٌ عن الخطأ.

وكما ذكرتُ سابقًا، فإنّ لونَ الديدان هو أكثرُ صفة جديرة بالملاحظة من صفاتها، وهذا ما قادني إلى لُبّ المشكلة. حيثُ أنّ لونها الأزرق البرّاق العجيب، ذكّرني فورًا بلون خلية كارلوس فوينتس التي حملتْها الدبّورةُ إليّ... ومع أنني لاحظتُ لونَ الخلية آنذاك، لكنْ لم يخطرْ في بالي ما يخطر فيه الآن، وأنا أرى اللونَ يمتدّ على سطوح متموّجة شاسعة. الآنَ تذكّرتُ أين رأيتُ هذا اللون من قبل، في نفس

Twitter: @ketab_n

اليوم الذي أخذنا فيه الخليّة، قبل أسبوع بالضبط، أين رأيته؟... إنه لونُ ربطة العنق التي كان يضعُها كارلوس فوينتس في ذاك اليوم! ربطةُ عنقٍ إيطالية فخمة، مصنوعة من الحرير الطبيعيّ، فوق قميص ناصع البياض... وبذلةٍ رسمية رمادية... (ذكرى واحدة تقود إلى الأخرى، حتى تكتمل الصورة...). وهذه العيّنة المرعبة من الأدلة، تكشفُ الستار عن جَسَامة الخطأ. لقد جلَبَت الدبّورةُ خليّةَ من ربطة عنق كارلوس فوينتس، لا من جسده. زفرةٌ حرّى خرجتْ من بين شفتيّ.

«أيتها الدبّورة الحمقاء! يا ملعونة الأمّ! من صنعكِ؟!»

«ماذا؟»، سألتْ نيللي مندهشة.

«لا تعطي أيّ انتباهٍ لي، فأنا أشرح لنفسي».

في الحقيقة، لا يمكنني أنْ ألوم الدبّورة، فالخطأ كلُّه خطئي. كيف لتلك المخلوقة المستنسَخة المسكينة، المعدَّة للاستعمال مرة واحدة، أنْ تعرف أين ينتهي الرجُل؟ وأين تبدأ ملابسه؟ بالنسبة إليها كلُّ ذلك واحد، كل ذلك هو «كارلوس فوينتس». وهذا لا يختلفُ عمّا حدث مع النقاد والأكاديميين الذي شاركوا في المؤتمر الأدبي، إذ وقعوا في معضلة لا حلّ لها: أين ينتهي الكاتب؟ وأين تبدأ كتبه؟ بالنسبة إليهم -أيضاً- كلُّ ذلك واحد، كل ذلك هو «كارلوس فوينتس».

الآن أرى كلّ شيء بوضوح: خلية الحرير تحتوي على الحمض النووي للدودة التي أنتجتْه، وآلةُ الاستنساخ قامتْ بوظيفتها بنجاح تام، فهي لم تفعلْ غير قراءة الشيفرة الوراثية وإعادة نسخها، وها نحن نشهدُ النتائج المنطقية. هذه الوحوش الزرقاء ليستْ أكثرَ ولا أقلّ من ديدان قزّ مستنسَخة، وإنْ كانتْ قد تضخّمتْ إلى هذا الحجم غير المعقول، فذلك لأنني -ببساطة- تركتُ آلة الاستنساخ تعمل على زرّ «العَمْلَقة». في ظروف أخرى، كنتُ الآن أبتسمُ بسخرية سوداء، وأنا

Twitter: @ketab_n

أقول: يا لَها من عظَمة أدبيّة عملاقة، مدمّرة وخطيرة، يمكن إنتاجها عن طريق الاستنساخ!

عدتُ إلى عقلي بعد أنْ أضعتُه في الأفكار التي تدفّقتْ في داخلي، واحدةً تلو الأخرة، مثل الحازوقة. وشعرتُ بحاجة ماسّة إلى فعل شيء، أي شيء، لتجنّب وقوع الكارثة الوشيك. للأسف، لا أملك موهبة الارتجال، لكنْ حان وقتُ العمل، لا الندم، وعليّ التفكير في شيء ما، فأنا من بدأ هذا ويجب عليّ إنهاؤه، وما يخرج مني يجب أن يعود إليّ. لا يمكنني أن أكون مسؤولًا عن موت مئات الآلاف من الأبرياء، وعن الدمار الشامل -لن يبقى حجر فوق حجر- لهذه المدينة الأثرية. المسؤولية العظيمة تقع على كاهلي، لكوني عظيمًا بشكل شيطاني.

أمسكتُ نيللي من كتفها، وتركنا الناس المجتمعين في الطريق المقنطر. الحشدُ بأكمله بدأ يتفرّق، رجال ونساء يتحركون فجأةً دون وجهة معينة. ماذا يمكنهم أن يفعلوا؟ هل يختبئون في الأقبية؟ يُدلُون بأقوالهم الأخيرة؟ في النهاية، يجب أن يفعلوا شيئًا.

كانت نيللي مصدومةً، وضعتُ وجهي قبالة وجهها، وتحدثتُ إليها لأسحب من فمها أيّ إجابة:

«سوف أفعل شيئًا، أعتقد أني قادر على إيقافها». نظرتْ إليّ بارتياب، كرّرتُ: «إنْ كان هنالك شخص واحد يستطيع إنقاذ المدينة، فهو أنا».

«لكن... كيف؟»، تلعثمتْ بالسؤال وهي تنظر خلفها.

«يجب عليك مساعدتي». وهذا لم يكن صحيحًا تمامًا، لعدة أسباب، من بينها أنني لم أضع خطّة بعد. لكنه نجح في إعادة بريق الأمل إلى عينيها. لا بدّ أنها تذكّرت أنني بطلُ «خطّ ماكوتو»، وأن القيام بالمآثر البطوليّة التاريخية ليس أمرًا غريبًا عليّ.

Twitter: @ketab_n

لم يكن علينا أن نذهب بعيدًا، إذ قفزنا داخل سيارة فارغة، كانت متروكةً وأبوابها مفتوحة، لربما تركها صاحبها وانضمّ إلى الحشد الذي يتابع الأحداث من الطريق المقنطر.

«هيّا نذهبْ»، قلتُ لها، وصعدتُ خلف المقود، بينما جلستْ نيللي في مقعد الركاب، وانطلقنا. لقد كانت سيارة أجرة، «بونتياك» قديمة من طراز السبعينيات، كما هي معظم السيارات في فنزويلا.

كنتُ خائفًا من أن تُغلَق الشوارع في وجهنا، لكنها لم تكن كذلك. صحيح أن حركة السير مشلولة، لكنها مشلولة بشكل عشوائي. الحلُّ الوحيد الذي استطعتُ التفكير فيه، هو أنْ أجد طريقًا من بين هذه الوحوش الحديثة الولادة، لأصل إلى آلة الاستنساخ، وأطفئها. بهذا الحلّ، أستطيع -على الأقلّ- إيقاف تكاثرها. لا أعرف في حال وضعتُ الآلة على زرّ الدوران العكسي، هل ستقوم بامتصاص الديدان إلى داخلها من جديد؟ يمكنني أن أجرّب ذلك على كل حال. في هذه الأثناء، دعستُ على دوّاسة البنزين، ووصلنا إلى منطقة نرى فيها الكتل الزرقاء الزاحفة نحو الأسفل بشكل ممتاز.

«إلى أين نحن ذاهبون؟»، سألتْ نيللي، «لا أظنّ أننا نستطيع الهرب».

«لا أنوي الهرب، بل العكس، أحاول الوصول إلى المكان الذي تخرج منه الديدان». ثم أضفتُ كذبةً بيضاء صغيرة، فأنا لا أريدها أن تعرف بأنني الشخص المسؤول عن هذه المصيبة: «ما علينا فعله، هو أن نغلق الـ... الحفرة التي تخرج منها، وربما، نجعلها تعود إليها... إلى... إلى تحت الأرض».

لقد صدّقتْني! كان كلامي غير معقولٍ أبدًا، لكنه بطريقة أو بأخرى، استحضرَ إلى ذهنها حادثة «خطّ ماكوتو» التي أوشِكُ أنْ أطير من

Twitter: @ketab_n

الفرح كلما تذكرتها، وها قد أضفتُ على كلامي صبغة الحقيقة.

تابعتُ الصعود بالسيارة أسرع فأسرع، كانت البونتياك القديمة ترتجُّ على الطريق، وصفائحُها تقرقع. وقد ساعدتني القيادة على استرداد بعض من تناسقي الذهني المفقود، بعد ليلة لم أنم فيها، وبعدما جعل الكحول كلَّ خلية من جسدي ميتةً من التعب. كنتُ منهكًا حتى العياء، لكنّ حمّام الأدرينالين الداخلي ساندني في تحركاتي، وبشكل بطيء، بدأت أتعافى وأستعيد ملَكاتي العقلية.

استدرتُ إلى اليسار، ودخلتُ في شارع ضيق شديد الانحدار، نقلتُ السرعة إلى الغيار الأول، ودعستُ دوّاسة البنزين إلى آخرها، حتى صار المحرّك يزمجر. وبهذا المجهود قادتنا السيارة إلى الطريق الدائري حول المدينة، فالتففتُ إلى اليمين، سائرًا في نفس اتجاه نسيم الصباح. كانت الأفاعي والجرذان التي هربتْ مذعورة من الجبال، تتدافع بجنون فوق إسفلت الطريق. يمكنني الآن رؤية ما يجري عن كثب، كانت زرقة الديدان تغطي الزجاج الأمامي للسيارة، فقد كانت في كل مكان، هنا وهناك، ويبدو أنّ زحفها إلى الأمام لا يمكن إيقافه. سمعنا أصوات حجارة -صغيرة نسبيًا، لحسن الحظ- تتساقط على سقف السيارة، وبدأتُ أشكّكُ في جدوى خطّتي. يبدو الوصول إلى آلة الاستنساخ مهمةً مستحيلة، إذ علينا أنْ نغادر السيارة عاجلًا أم آجلًا، وربما اقتربَ موعد ذلك، وكنتُ آملُ أن أصل بالسيارة، على الأقل، حتى تقاطع هذا الطريق مع الطريق الصاعد إلى أعلى الهضبة. الآن تذكّرتُ بأني مشيتُ على قدميّ لمدة ساعة أو أكثر، قبل أن أضع الآلة في مكانها. وبناءً على الأحداث المتسارعة، فإن هذه المدة كافية للديدان لكي تحوّل المدينة إلى صفحة بيضاء، هذا في حال استطعنا التملُّص منها، وبلوغ هدفنا البعيد.

Twitter: @ketab_n

عبرنا قرب واحدة من الديدان الزاحفة صوب الوادي، كانتْ على مقربة مائتي ياردة من الطريق، ويمكنك عن قرب أنْ تتأكد كم هي مدمّرة وساحقة. شكلُها الذي يبدو من بعيد أسطوانيًا مثل الدودة، يصبح هنا هلاميًا، أشبه بالغيوم الزرقاء. كانت عينا نيللي تبتلعان الكتلَ الزرقاء العملاقة، فتديرُ رأسَها إلى الخلف، نحو المدينة، وكأنها تحسب الوقت المتبقي لوقوع الكارثة. ثم أحسَسْتُ أنها تفكّر في أمر آخر، وبعد ثوانٍ نظرتْ إليّ وصرخت بأعلى صوتها: «سيزار»!

« نعم»، قلتُ وأنا أرفع قدميّ عن دوّاسة البنزين.

«نسيتُ أميلينا»!

أربكتْني هذه المفاجأة جدًا، وشلّتْ أعصابي كليًا. ففي هذه اللحظة أكثر من أي لحظة أخرى، بدتْ أميلينا مثل أسطورة، أسطورة العشق. وقد سبقَ لي أنْ روّضتُ نفسي على فكرة ألّا أراها ثانية، ولهذا جاء اسمُها إليّ قادمًا من البعيد، من الما وراء، كرمز أسطوريّ أو كظاهرة لسانيّة مجردة. لكنّ نبرة نيللي تحملُ ملامح الجدّية والحقيقة، ما دفعني لتبنّي رؤية عمليّة أكثر، كما لو أنّ أميلينا موجودةٌ حقًا. وهي بلا شكّ كذلك، موجودةٌ في مكانٍ ما من هذه المدينة التي نراها تمتدّ على يميننا، المدينة الصغيرة والمهدَّدة بالخراب، مثل مُجسَّم مدينةٍ بين يدي طفلٍ غاضب.

صورةُ فلورنسيا، حبّي الأول، ما زالتْ ترفرف في خيالي. فلورنسيا الشابة العاشقة المتيّمة، تقمّصتْ في صورة أميلينا بعد ثلاثين سنة. إنها التقمّصات الروحية العشقيّة، هي من صاغتْ شكل حياتي، وما برحتْ تدور من حولي كالأشباح، مشكّلةً دوّامةً من الضوء الأسود، لطالما غرقتُ فيه وما أزال.

«أين هي؟»

Twitter: @ketab_n

«في بيتها، عادةً تنام لوقتٍ متأخر، ونومُها ثقيل. يجب أن نذهب لنوقظها، ونخبرها بما يجري».

وماذا سوف تستفيد أميلينا من ذلك؟ لا شيء! ونحن أيضًا؟ لا شيء! لكنّ الفكرة أغرتْني لسببين؛ أولًا: يمكنني رؤية أميلينا مجددًا، وتحت ظروف خطيرة ومصيرية. ثانيًا: هذا هو العُذر الأمثل لكي أتخلّى عن خطّتي غير العمليّة بالوصول إلى آلة الاستنساخ. في اللحظة التي قررتُ فيها الذهاب، ملأتْني بهجة طفولية، لأنّ كلمات نيللي تشيرُ ضمنيًا إلى أنّ أميلينا ما زالت تعيش وحيدة، أي لم تتزوّج. وأنها -أقصد نيللي- ما زالتْ تعتقدُ بوجود علاقة ما بيني وبين أميلينا. وإنْ كانت نيللي لم تذكُر اسمها أمامي، إلّا في حالة الخطر الشديد هذه، فهذا لأنّ حبَّنا كان عظيمًا، ولا يكشف عن وجهه إلا في الظروف الاستثنائية...

«فلْنذهبْ»، قلتُ، «لكنْ، أرشديني إلى الطريق».

أشارتْ نيللي إلى المخرَج الأول، فانعطفتُ عن الطريق العام بسرعة جعلتْ إطارات السيارة تزعق. أدرنا ظهرنا للجبال والديدان، وكأننا نقول «لا يهُمّ»، واتجهنا إلى المدينة عبر طريق لا أعرفه. أخبرتْني نيللي أنّ أميلينا ما زالتْ تسكن في إحدى الشقق الطلابية في «مبنى نانسي»، وهو نفس المكان الذي زرتُها فيه قبل سنوات. لم يكن بعيدًا، أصلًا لا شيء بعيد في مدينة صغيرة كهذه.

اكتظّتْ شوارعُ المدينة بالسيارات، كانت السيارات تتحرك نوعًا ما، لكنّ أصحابها لا يُعيرون اهتمامًا لإشارات المرور. أتساءل: إلى أين ينوون الذهاب؟ نظرتُ إلى سطوح الأبنية، فرأيتُ الناس ينظرون نحو الجبال، بنفس الوجوه الخائفة المذعورة. لم يكونوا يفعلون أيّ شيء، لكنْ ماذا بوسعهم أن يفعلوا؟

Twitter: @ketab_n

«إلى أين يذهبون؟»، سألتْ نيللي.

فجأةً عرفتُ الجواب؛ إلى المطار! من الغريب أنّ الفكرة لم تخطر في بالي قبل الآن، بينما خطرتْ في أذهان الآخرين. المهرَبُ الوحيد هو عن طريق الجوّ. لكنّ حتى لو كان ذلك، لنفترضْ وجودَ عدد من الطائرات الخاصة المتاحة، ووصولَ بعض الحوّامات العسكرية، رغم ذلك لا يمكن إنقاذ الجميع، وسوف يُترك الآلاف من البشر لوحدهم. أما الطائرة التي تصل في العاشرة، وتغادر في الحادية عشرة، فلربّما ألغتْ رحلتها، وفي حال لم يقع إلغاء الرحلة بعد، فإنها ستصلُ مليئةً بالركّاب، وبالتالي سيطلبُ الركّاب أنفسُهم البقاء فيها، والعودة إلى كركاس.

عبرتْ سيارةُ مرسيدس بمحاذاتنا، التفتُّ إليها لأنّ زمّورها كان أقوى من صفّارة الإنذار، لمحتُ كارلوس فوينتس وزوجته جالسَيْن في مقعدها الخلفيّ، رأيتُ وجهيهما المرتعبَين من منظور جانبي. هُما أيضًا ذاهبان إلى المطار، يا لَهما من ساذجين! أو لربما عُرِضَ عليهما مقعدان في الطائرة الرسمية؟ المدينةُ هي عاصمة الولاية، وبالتأكيد سيكون لحاكم الولاية المقعد الأول... وأنا لا أتصوّرُ أنه في مأزق كهذا، في حالة «أنقذْ نفسَك إذا استطعت»، سوف يتمُّ احترامُ التراتبيّة الهرميّة للأدباء! لا يمكن! على الأغلب، إنهما ذاهبانِ ليحاولا بطريقة ما، وبأساليب ملتوية، اصطياد مقعد، مثلهم مثل الكثيرين غيرهم... تذكّرتُ أني أملكُ حجزًا على طائرة الساعة الحادية عشرة، حتى أنني أحملُ التذكرة في جيبي... في حال استطعتُ اللحاقَ بالمرسيدس الجبّارة، سوف أُهديهما مقعدًا... فلطالما أحببتُ كارلوس فوينتس، وليس عبثًا أن اخترتُه من أجل تجربتي. أشعرُ الآن بأني نذل، فكلُّ ما يحدثُ هو خطئي أنا. وبدلًا من أن أُعيد الأمور إلى نصابها،

Twitter: @ketab_n

وأنقذ العالم من الدمار الشامل (هذا أقلُّ ما ينبغي فعله)، أتركُ نفسي تقودُني وراءَ نزوةٍ عشقيّةٍ خاصّة. أشعرُ بالعار لانعدام شعوري بالمسؤولية.

ولكي أسترضي ضميري، قلتُ بصوتٍ عالٍ: «سوف يستغرق الطريقُ بضع دقائق، وبعدها نعود نحنُ الثلاثة إلى الجبال».

أشارتْ نيللي إلى حيثُ ينبغي أنْ أنعطف، وتابعتْ توجيهي على طول المسار المتعرّج، انحنتْ إلى الأمام وأشارتْ بإصبعها إلى الاتجاه الذي يجبُ أنْ نسلكه. لم أستطعْ تجنُّب النظر إليها، فقد بدتْ لي وكأنيْ أراها لأول مرة، أكتشفُ جمالَها من جديد، وشبابها. . . شبابٌ في قمّة الشباب، شبابٌ مفْرطٌ وزائدٌ عن حدّه. أتمنّى لو أعود شابًا، «طيّبًا ووسيمًا» كما قالتْ. لقد كانت غامضةً حقًا، نيللي الصغيرة هذه، صفاؤها وصمتُها يخفيان سرًا ما، لغزًا ما، يأسِرُني ويغرقني في الفتنة.

هنا توجد صفحة بيضاء في هذه القصة، فلا أعرفُ ما الذي حدثَ في الدقائق التالية. ربما لم نصلْ إلى بيت أميلينا، ربما وصلنا ولم نجدها، ربما وجدناها ولم نستطعْ إيقاظها... ما أعرفه الآن هو أني وجدتُ نفسي فجأةً، تحت مستوى الشارع بما يقارب مائة قدم، على ضفة جدول الماء الذي يعبرُ في الأخدود الذي يشقُّ الوادي والمدينة بشكل طولاني. ووراءي، في البعيد الأعلى، يقع الجسر، الجسر الرئيسي الذي يصل طَرفي المدينة ببعضهما فوق الأخدود. جمْعٌ من الناس احتشدوا فوق الجسر، وراحوا يحدّقون إليّ. أما أمامي، فكانتْ إحدى الديدان العملاقة، تقفُ بسكون تامّ، أمامي بخمسين قدم فقط. من الواضح أنّ هذا الوحش تدحرج إلى هنا دون قصد، لقد كان سقوطُه هائلًا، بناءً على ما خلّفه هذا السقوطُ من أضرارٍ خلْفه:

Twitter: @ketab_n

أشجار مقتلعة، بيوت مسحوقة، شظايا وفتات لأشياء لا أعرف ما كانت عليه. هذه أولى الديدان الواصلة، أما البقيّة فما زالتْ تحاصرُ المدينة بقبضة الموت المُحْكمة. نظرتُ من حولي، كانت شرفاتُ المنازل المطلّة على الأخدود ممتلئةً بالناس المتلهّفين لمشاهدة هذه المواجهة. ميّزتُ «مبنى نانسي» من بين كل الأبنية الأخرى، فجدرانه الورديةُ تبعثُ أشعّة كامدة، تخضّبُ وجوهنا بالحُمرة.

كان الإحساسُ بالخطر المُحدق، العاملَ الوحيد الذي أنقذني من فقدان الذاكرة. كانت يدايَ تُمسكانِ بالمقود البصريّ للمجهر العملاق، بينما تحملُه نيللي من طرفه الآخر، فقد رأيتُها عبر زجاج العدسة. كيف وصلنا إلى هنا؟ ومن أتى بهذا الجهاز؟! ليس لديّ الوقتُ لتركيب المشهد في ذهني، فأنا الآن أرى دودةً على وشك السقوط في الأخدود العميق، وهو أدنى مستوىً تستطيع بلوغه، ما يعني أنها ستصبح تحت رحمتي، ولو لبضعة دقائق، وهذا ما يمكنني من اختبار تجربة تدميريّة جديدة.

لكن كيف وصلنا إلى هنا؟ على الأرجح، ركضنا إلى ساحة «بلازا بوليفار» التي تبعدُ بضعة مئات من الياردات، لإحضار المجهر العملاق، ثم حملناه على أكتافنا (هذا أكيد، لأنّ كل عضلة في جسمي توجعني)، وأنزلناه من أعلى الجسر، وهذا الحبْلُ الذي ما زال مربوطًا به دليلٌ كافٍ على ذلك.

الآن، يجب أن أسرع بالعمل، وبغضّ النظر عن طبيعة التجربة، فأنا أصلًا لا أملكُ وقتًا لدراسة أبعادها ونتائجها. بالإضافة إلى أنّ دماغي مشلول، أو ربما كان يعمل، لكنْ دون علمي أو مشورتي...

«أعلى من ذلك يا نيللي، أعلى قليلًا، نعم... ببطء...»

كانت نيللي المسكينة تلهثُ من التعب، عندما ثبّتْنا المجهرَ العملاق أمام الدودة، ورُحنا نقلّبُ العدسات بحذر شديد. إن تحريك العدسة

Twitter: @ketab_n

إنشًا واحدًا في الاتجاه الصحيح، يصنع الفارق كلّه. رأيتُ انعكاس الدودة، ولمستُ صورتها الباردة على زجاج العدسة برؤوس أصابعي. وعلى الرغم من كونها متوعَّدة وخطيرة ومدمّرة ومُهلكة، مثل ناطحة سحاب تزحف على الأرض، إلا أنها كانت جميلة، تحفةً فنيّة! فأنا مولَعٌ بكلّ ما هو ضخم ومتهوّر. ربما لم يحدث في يوم من الأيام، أنّ دبَّ على الأرض مخلوقٌ مثلها، كائنٌ مصنوعٌ من الحرير الأزرق، اصطناعيٌّ جدًا، وفي نفس الوقت طبيعيٌّ جدًا.

نظرتُ إلى الدودة مباشرةً، إنها تسير نحونا، ومع أنها لا تملك وجهًا، لكنّ ملامحَها توحي بمشاعرها الدفينة، فهي مرتعبة لأنها وُلدتْ في هذا العالم، ومحبَطةٌ لكونها غيرُ مرحَّب بها، وهبطتْ على أرض ليستْ مرغوبةً فيها. تمنّيتُ لو أبقى هنا لساعات، لكي أتأمّلها فقط. إنها تُحفتي الفنيّة، لن أستطيع يومًا خلقَ شيء مثلها، حتى لو أردتُ ذلك. من أين جئتِ بهذا اللون الأزرق الرائع؟!

وكما لو أنّ نظراتي لها قد استفزّتها، بدأتْ تتحرّك صوبي، حتى صارت المسافة بيننا، ليستْ أكثرَ من هزّة بالنسبة إليها. اختبأتُ نيللي خلفي، وقطعَ المشاهدون أنفاسهم. أجلتُ عينيّ في جسمها الجبّار، إنها بارتفاع مبنىً من خمسة طوابق. ينبغي أنْ أفعل شيئًا الآن، وإلّا فلنْ أفعل شيئًا إلى الأبد.

في اللحظة ذاتها، بزغَ شعاعُ شمس من بين شقوق الجبال، ودخل في خط مستقيم زجاجَ المجهر العملاق. حرّكتُ العدسات بخبرة وبراعة، حتى ركّزتُ شعاعَ الشمس في دائرة صغيرة. أعرفُ تمامًا الأثرَ الذي يحدثه الضوء في الخلايا المستنسَخة، وفعلًا، بدأت الدودةُ تُمتَصُّ إلى صورتها المنعكسَة على زجاج العدسة. كنتُ سريعًا للغاية، رشيق الأنامل، وكان المجهرُ العملاق يهتزُّ فوق أكتافنا، وخشيتُ أنْ

Twitter: @ketab_n

يسقط أرضًا، فرفعتُه بكلّ قواي، وطلبتُ من نيللي أنْ تفعل الشيء ذاته من الطرف الآخر، فأطاعتْ أوامري رغم خوفها الشديد. كاد المجهرُ ينكسر إلى نصفين، لكننا حملناهُ بصلابة، بينما تابعت الدودةُ امتصاصها إلى داخله... وحين ظلَّ أقلُّ من عُشْر كتلتها متجسّدًا، التفَّتْ حولنا، فأغمضتُ عيني. أحسستُ بها تنزلقُ عليّ، وكأنها تنظّف نفسَها بي، وتغلغلَ اللون الأزرق في داخلي وتحت أجفاني المسدَلَة. عندما فتحتُ عينيّ، كانتْ قد أنهتْ عملية دخولها... أو بالأحرى، بقيتْ كِسْرةٌ من الجسم الأزرق، وربما لأنها الأخيرة، قفزتْ بحركة لولبية سريعة، ودخلت المجهر من الطرف الذي تحملُه نيللي، ثم امتصّها الزجاجُ بسرعة. حركتُها المفاجئة هذه، جعلتْ نيللي تفقد فردة حذائها، وتجرحُ قدمها...

ما زال المجهر مثبّتًا على أكتافنا، مددتُ رأسي إلى الأمام، لأسترقَ النظر إلى الزجاج. كانت هناك، في الداخل، مثل الخرزة الزرقاء التي نعلّقُها تميمةً، زرقاء برّاقة، تتحلَّل إلى ذرّات، وتمتزجُ مع ذرّات الشمس الذهبية في معركة محتدمة. ثمة قطرةُ دم من قدم نيللي، لطّختْ زجاج المجهر. لكنّ شعاع الذرّاتِ الشمسيَّ، ومثل النسمة، حملَها معه في غياهب الشفافية.

بدأ المشاهدون يصفّقون ويهلّلون، وراحتْ مزامير الابتهاج تدوي في كل أرجاء المدينة. لقد اختفى قطيعُ الديدان العملاقة بأكمله، مُتحلّلًا في نسيم الصباح. اعتبرَ الناسُ ما حدثَ معجزة، فنزلوا على رُكبهم، ورفعوا أياديهم إلى السماء. أما أنا، رجُل العقل، فقد كنت أعرفُ أنْ لا شيء يحدثُ دون سبب. هذه هي طبيعة الخلايا المستنسَخة، الواحدُ هو الكُلّ.

أمسكتُ قدمَ نيللي، كانت تنزفُ بغزارة. بدأ بعضُ الشبّانِ ينزلون من الجسر في اتجاهنا، وقد عرضَ أوّلُ الواصلين أنْ يحملها. لم يكن

Twitter: @ketab_n

الجرحُ خطيرًا، لكنّ يجب أخذُها إلى مركز الإسعاف لتضميده. سرتُ خلفهم صعودًا إلى الطريق، وعندما وضعوا نيللي داخل السيارة، أخبرتُها أنني مسافرٌ على متن طائرة الصباح، مثلما كنتُ مقرّرًا من قبل. وقد وعدتْني بأنْ تأتي إلى المطار، لكي تودّعني.

Twitter: @ketab_n

سيزار آيرا:

منذ عام 1975 إلى اليوم، نشر الكاتب الأرجنتيني سيزار آيرا أكثر من سبعين رواية، ومن الصعب أن تعرف العددَ الدقيق لرواياته، طالما أنّ الرقم يزداد باطّراد، وبمعدّل روايتين في السنة. معظمُ رواياته لا تتجاوز الواحدة منها مائة صفحة، وتتّسمُ بالتكثيف والإدهاش، وتنوّع أساليب السرد، والمزج بين الواقعية والعبثية والسوريالية والدادائية.

ولد سيزار آيرا في ريف العاصمة بيونس آيرس يوم 1949/2/23، وهو روائي ومترجم، وكاتب قصص قصيرة ومقالات نقدية. ويعتبرُ خيرَ ممثّل للأدب الأرجنتيني المعاصر. ألقى سلسلة محاضرات في جامعة بيونس آيرس عن «كوبي» و «رامبو»، ثم سلسلة محاضرات في جامعة روزاريو عن «البنيوية» و «مالارميه». لكنه بقي في معظم سنوات حياته يكسب رزقه من عمله في الترجمة.

يعتبر آيرا من جيل الكتّاب الذين ثاروا على الواقعية السحرية، فكتبوا ضدّها، وعكسها، وأدخلوا التقاليد الثقافية الأوروبية في أدب أمريكا اللاتينية.

من رواياته:

موريبيرا، 1975. إيما الأسيرة، 1981. الأشباح، 1990. كيف أصبحتُ راهبة؟ 1993. المؤتمر الأدبي، 1997. التداوي

Twitter: @ketab_n

بالمعجزات على طريقة الدكتور آيرا، 1998. حدث طارئ في حياة رسّام المناظر الطبيعية، 2000. فارامو، 2002. الاعتراف، 2009. المهرجان، 2011. مارغاريتا، 2013. القدّيس، 2015. الدماغ الموسيقي، 2016.

«المؤتمر الأدبي» هي أوّل رواية لـ سيزار آيرا تترجم إلى اللغة العربية.

Twitter: @ketab_n

ألف راء

علامات في الرواية العالمية

سلسلة يديرها ظافر ناجي وشوقي العنيزي

صدر مؤخّرا ضمن هذه السلسلة

لاعب الشطرنج
المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: سحر ستّالة

فوضى الأحاسيس
المؤلّف: ستيفان زفايغ
البلد: النمسا
ترجمة: ميساء العرفاوي

ألعاب خطرة
المؤلّف: أوغوز آتاي
البلد: تركيا
ترجمة: بكر صدقي

Twitter: @ketab_n

قطار الليل إلى لشبونة
المؤلّف: باسكال مرسييه
البلد: سويسرا
ترجمة: سحر ستّالة

هيّا نشتر شاعرا
المؤلّف: أفونسو كروش
البلد: البرتغال
ترجمة: عبد الجليل العربي

ترومبيت
المؤلّفة: جاكي كاي
البلد: أسكتلندا
ترجمة: عماد الأحمد

أنشودة المقهى الحزين
المؤلّفة: كارسن ماكالرز
البلد: أمريكا
ترجمة: علي المجنوني

المتطوعون
المؤلّف: مواسير سكلير
البلد: البرازيل
ترجمة: أماني لازار

Twitter: @ketab_n

الحزينة
المؤلف: كارلوس فوينتس
البلد: المكسيك
ترجمة: جمال الجلاصي

الأرض المنخفضة
المؤلفة: جومبا لاهيري
البلد: أمريكا
ترجمة: يارا البرازي

نرسيس وغولدموند
المؤلف: هرمان هيسه
البلد: ألمانيا
ترجمة: أسامة منزلجي

الحجر الحيّ
المؤلفة: ليونور دي روكوندو
البلد: فرنسا
ترجمة: لينا بدر

لمواكبة جميع إصداراتنا، تابعوا صفحتنا
على تويتر: MascilianaE@
وعلى الفايسبوك: Masciliana Editions

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سيزار آيرا

المؤتمر الأدبي

«إذا كان هنالك كاتب معاصر لا يمكن تصنيفه، فهو سيزار آيرا. حالما تبدأ قراءته فإنّك لا تستطيع التوقف، إنه واحد من أفضل ثلاثة كتّاب بالإسبانية.»

روبرتو بولانيو

«المؤتمر الأدبي، هي العربة الأمثل لـ سيزار آيرا، العربة التي تقوده إلى زعامة الأدب في القرن الواحد والعشرين.»

Goodreads Review

«إنّها رائعة سيزار آيرا، رواية تُقرأ على طبقات. وهي أشبَهُ بنفقٍ مستقيم، يفتِنُك ويُغريك بمواصلة الركض فيه حتى النهاية.»

The National

«ليست روايةً عن مؤتمر أدبي، إنها عزف متنوّع على أوتار الاستنساخ والأدب والعبقرية، قبل أنْ تبلغ ذروةَ الخيال العلمي المتعدّد الألوان.»

The Guardian

«لقد نقلَ محورَ الأدب اللاتيني الأمريكي، من الواقعية السحرية التي استهلكتْ نفسها منذ عام 1980، إلى ثقافة أوروبية تجمع بين العقلانية واللامعقول.»

The New York Review of Books

ISBN: 978-9938-833-80-5